الأعمال الكاملة (٧)

شاكر خصباك

حياة قاسية

مجموعة قصص

الاعمال الكاملة - ٧

شاكر خصباك

حياة قاسية

مجموعة قصص

مركز عبادي للدراسات والنشر

الطبعة الاولى ١٩٥٩
الطبعة الرابعة ١٩٩٦

الناشر : مركز عبادي للدراسات والنشر
ص. ب. : ٦٦٢ صنعاء الجمهورية اليمنية

حياة قاسية

حياة قاسية*

١ - يوم آخر

"حلومة. حلومة عيني. قومي صار الصبح".

هل يظل هذا الصوت يلاحقها طيلة حياتها؟ إلى أن تموت؟ إلى أن تدفن في القبر؟ فليقبض عزرائيل روح حليمة. لِمَ لا يدعونها يوماً تشبع من النوم؟ لِمَ لا يدعونها يوماً بدون عمل؟! إنهم ألقوا عليها أعباء المنزل منذ بلغت الثالثة عشرة، وسوف تحمل هذه الأعباء إلى أن تموت. إنها تجري على قدميها من مطلع الشمس حتى مغيبها. وليس من أحد يشفق عليها. ليس من أحد يشعر بأسف لحالها. إن كل شخص في هذا البيت يرغب في بقائها حتى ينحني ظهرها ويتخدّد وجهها. وما يدريها؟! لعلهم يتآمرون عليها ويحولون دون زواجها. لعلهم يطردون "الخطّابة" دون علمها. لعلهم يبثّون إشاعات بأنهم لا يرغبون في تزويجها. إنهم جميعاً يتآمرون على إبقائها في البيت لتخدمهم.. "كل من تسوى ولا تسوى تزوجت وبقيت أنا أم حظ النائم". وفي مساء أمس زفّت صبرية آخر قريناتها العذارى. وكم كانت فرحة سعيدة وهي تزيّن

---

* كتبت قصص المجموعة فيما بين عام ١٩٥٢ و ١٩٥٤.

استعداداً لملاقاة العريس. ولقد شعرت وهي تتأمل وجهها الفرح أن قلبها ينوء بهم ثقيل. وعبثاً حاولت أن تغتصب الضحكات لتشارك في السرور الذي يعجّ به البيت. وتخيلت نفسها جالسة على الكرسي مكان صبرية وبنات الجيران يزيّنها ليلة الدخلة، لكن ستاراً كثيفاً كان يحجب هذه الصورة عن عين خيالها. إنها لن ترى ذلك اليوم. لن تراه أبداً. صحيح أن الدنيا حظوظ، وأن الله هو الذي يقسّم الحظوظ، ولكن صبرية ليست أجمل منها. فلِمَ تتزوج وتبقى هي؟! وزفرت زفرة حرّى وهمست: "أوف ربّي.. لِمَ؟! لِمَ؟!".

"حلّومة عيني. تأخر الوقت. قومي حضّري الشاي".

صاحت حليمة بغضب: راح أقوم.

وركلت اللحاف بعنف واستوت في فراشها. بقيت جامدة دقائق كالتمثال وذكريات ليلة أمس تنهال على ذهنها، ووجه صبرية الضاحك يتشبث بخيالها. ثم تنهدت ونهضت ببطء وغادرت فراشها. وقفت في وسط الغرفة وأدارت عينيها في أركانها تفتش عن عباءتها. وتجنبت النظر إلى جدتها لئلا تفضحها عيناها. إنها لم تعد تحب جدتها. لم تعد تحب أي واحد من سكنة هذه الدار.

عثرت على العباءة فالتفّت بها وخرجت إلى فناء الدار. كان ثمة هواء قارس يلسع الوجه كالسياط. وارتعد جسدها واصطكت أسنانها. أفرغت رماد اليوم السابق من "المنقلة" في صفيحة الزبالة وهيأتها للنار. ثم صعدت إلى السطح وانتقت حزمة من خشب النخيل، وعادت تحملها على ذراعيها، ووضعتها في "المنقلة". إن هذا الخشب رطب، وعليها أن

تنفخ فيه طويلاً حتى يشتعل، والدخان يعمي عينيها، والهواء يهب عليها بارداً كالزمهرير. اشتعلت النار وتعالى منها ثعبان هائل من الدخان. ووضعت فوقها وعاء الماء، وانصرفت إلى إعداد الشاي.

وكان الأب قد استيقظ وارتدى ملابسه وتربع على حصيرة في الغرفة محنيّ الظهر تائه النظرات. وأطلت عليه حليمة بوجه عابس وتساءلت: ماذا نشتري اليوم؟

رفع عينيه الشاردتين وغمغم: اشتري لنا اليوم جبناً يا حليمة.

ودسّ يده في جيب جلبابه وأخرج كيسه الحائل اللون. تفرست حليمة في وجهه الذابل وعينيه الكليلتين وجبينه المغضّن. أيحبها حقاً؟ الجميع الآن يغطّون في نومهم، وسيظلون يغطّون حتى الضحى، وعليها أن تكسّر الخشب، تشعل "المنقلة"، تجهز الشاي، ثم تخرج إلى السوق لتشتري الفطور. فكيف يرضى بذلك؟!

كان الزقاق صامتاً. لم يكن قد خرج الأطفال بعد، عدا سلّومي ابن زهرة الذي كان يتغوّط بجوار باب الجامع كعادته كل صباح. وكان الكنّاس منهمكاً في عمله على بعد بضعة أمتار منه. وخطر لحليمة أن تقف قليلاً لترى ماذا سيقول الكنّاس لسلّومي. ولم يكن قد مضى أسبوع على المعركة التي قامت بينه وبين زهرة أم سلّومي لاعتراضه على تغوّط ابنها في الزقاق. وخرج الكنّاس من تلك المعركة بجروح في وجهه ورأسه، وخرجت أم سلّومي بريئة من الاعتداء. ويقال إنها ادّعت بأن الكنّاس اتخذ ذلك عذراً لمغازلتها والتحرش بها.

وقفت حليمة قرب الجامع وترقبت بلهفة وصول الكنّاس إلى موضع سلّومي. لكن الكنّاس تجاوز موضع سلّومي ولم يقل شيئاً، واكتفى بنظرات شزراء رماه بها. فاستأنفت سيرها وهي تحسّ أنها تكره هذا الزقاق وتكره كنّاسه الجبان. وقبل أن تجتاز بيت "أبو التبن" رفعت رأسها نحو السطح فلمحت رأس حسن المجنون يتوارى خلف الجدار بسرعة، وسقطت أمامها حصاة صغيرة. وكان حسن المجنون يبكر كل صباح بالاختباء وراء سياج السطح ليرمي المارين بالنوى والحصى. وتفلت حليمة في الهواء محنقة.

كانت الحياة قد دبّت في "سوق الفضل"، وكانت أصوات الباعة تختلط بجدال المشترين. وكانت بائعات الخبز يجلسن في صف طويل وهنّ يتسابقن في دعوة العابرين. والتفّت حليمة بعباءتها. وترسبت مرارة في أعماقها وهي تتصفح وجوه الناس. ليتها كانت إحدى بائعات القيمر أو الخبز، تمضي في السوق ما تشاء من الوقت، وتعود إلى البيت متى راقت لها العودة. ولكن الله كتب عليها ألاّ ترى السوق إلاّ لكي تشتري الفطور من دكان الحاج مهدي البقال ثم تسرع في العودة إلى البيت.

بلغت حليمة دكان الحاج مهدي، ووقفت تنتظر دورها. كان رجل مسنّ وصبية يقفان لشراء بعض الحاجيات، وكان فتّاح مشغولاً بخدمتهما. إن فتّاح ابن الحاج مهدي يشبه عمر في نظراته القاسية ووجهه المتجهم. تُرى ألديه أخت يسيء معاملتها كما يفعل عمر معها؟!

انصرف الرجل والصبية والتفت إليها فتّاح متسائلاً بعينيه فقالت باقتضاب: اعطني ربع جبن.

فأكبّ فتّاح على كتلة الجبن يعمل فيها السكين بصمت، فلم يأبه له الذباب المعشعش عليها. سألته حليمة فجأة في سخط مكتوم: هل تزن كلماتك بميزان الذهب؟

فتطلّع إليها مدهوشاً وهو يرفع قطعة الجبن ويضعها في الميزان. واستمرت حليمة تقول بلهجتها الجافة: أنت لا تكلّم الزبائن وكأن كلماتك تساوي ذهباً.

فتأملها فتّاح لحظة ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وقال: نحن البقّالين لا نتكلم كثيراً. الحلاّقون هم الذين يتكلمون كثيراً.

فقالت حليمة وهي تناوله النقود: ليس كل البقّالين مثلك.

ألقى فتّاح النقود في "طاسة"، ومضى ينبش فيها باحثاً عن "خردة" وهو ما يزال يبتسم. وهبّت نسمة باردة فارتجف جسد حليمة، والتفت بعباءتها بقوة. ورفع فتّاح إليها عينيه وحدّجها بنظرات جريئة وقال وهو يناولها بقية النقود: الدنيا باردة جداً اليوم.

فقالت بدون وعي وهي تزداد انكماشاً في عباءتها: موت برد.

قفلت حليمة عائدة إلى الدار ونار "المنقلة" تتمثل في ذهنها فتحثّ قدميها على الإسراع. وتخيّلت فراشها الدافىء، وأمها الغارقة في النوم، وعمر الذي يصحو عند الضحى، واستعر الألم في قلبها. ستعدّ الفطور، ثم تغسل الصحون في الماء البارد، ثم تستعد لتهيئة الغذاء، فتقطع اللحم، وتقشّر الخضر و...

وتذكرت فجأة وهي تدخل الزقاق أن فتّاح ابن الحاج مهدي قال لها شيئاً. أصحيح أنه تحدث معها؟ هذا الإنسان الذي يزن كلماته بميزان

الذهب؟! وألحّت عليها الرغبة في تذكر ما قال، لكنها عجزت أن تتذكـر. واعترّاها الأسف على ضياع مثل تلك الفرصة.

٢ - جحيم لا يطاق

تعالى أذان الظهر في جامع الزقاق، وأزاحت حليمة الغطاء عن قـدر المرق وتشمّمت الطعام. كان هناك فقاعـات تختفـي وتظهـر فـي غمضـة عين. وغمسـت الملعقـة فـي القـدر وصبّـت مـاء المـرق فـي راحـة يدهـا ولعقته. إنه بحاجة إلـى القليـل مـن الملـح، والفاصوليـا مـا تـزال بيضـاء اللون. كم تكره الفاصوليا! إن طبخها يقتضي وقتاً طويلاً، وسيقدم الصبيّ بعد قليل ليحمل الغداء إلى أبيها في السـوق، ولـن تمضـي نصـف سـاعة حتى يحضر عمر. وإذا لم يجد عمر الطعام جاهزاً فلن ينقذها شـيء مـن لسانه الحاد.

ـ صار الغدا يا حليمة؟

تساءلت أمها وهي عاكفة على قميص بين يديها ترتّق فتوقه، فأجابتها بخشونة: لا.

فقالت الأم دون أن تحول عينيها عن القميص: متى سنتغدى؟ سأموت من الجوع.

فهتفت حليمة في حنق: وماذا أعمل لك؟ ألنا أسرع من النار؟

فكفّت الأم عن عملها وطالعتها بعينين ساخرتين وقالت: تعالي كليني. أانت بنت السلطان لا يستطيع أحد أن يكلّمك؟!

ـ نعم أنا بنت السلطان، فبنت السلطان تشتغل من الفجر حتى منتصف الليل!

ـ وماذا تريدين؟ أننصب لك كرسياً تقعدين عليه من الصباح حتى المساء؟!

ـ أنا لا أريد كرسياً أقعد عليه من الصباح حتى المساء. أنت في حاجة إلى الكرسي.

ـ الله لا يمهلك على هذا التعدي. تردّ عليّ كلمة بكلمة.

وكانت الجدّة متربعة على سجادتها وهي متلفعة بردائها الأبيض وقد فرغت لتوّها من صلاة الظهر. قالت دون أن تحوّل طرفها عن سبحتها: أنت تتحرشين بها ثم تلومينها على ما تقول، هذا ليس إنصافاً.

فغمغمت الأم في استهجان: ألا يجوز أن أكلّم يوماً ابنتي من دون تدخّل أحد؟!

ـ اتّقي الله. الطفلة تشتغل من الصباح حتى المساء ولا تنجو من لسانك.

ـ وأنت ألا تخافين الله؟! تردّين عليّ الكلمة بعشر كلمات. كلما قلت لها شيئاً وأنا أمّها ولي عليها حقّ الأم. تتكلمين عن الإنصاف وأنت لا تعرفين الإنصاف.

ـ الله يعلم إن كنت أعرف الإنصاف أو لا أعرفه. أنت تعرفين الإنصاف أحسن مني.

ـ أنا!! لا عيني، لا. أنت أمّ الإنصاف.

صاحت حليمة فجأة: بسّ. لخاطر النبي بسّ.

ران على "الليوان" لحظة صمت عميق لـم يكن يعكّره سوى قرقرة القدر . ثم بدأت الأمّ تنوح وتندب حظها. وشعرت حليمة أن قلبها المثقل بالحزن يغوص إلى أعماق سحيقة.. "أنا الذي يجب أن تنوح لا أنت". وخيّل إليها أن في إمكانها أن تبكي يوماً كاملاً دون أن تجفّ دموعها. وعجّت رأسها بالخواطر وهي تقعد القرفصاء بجوار الموقد محدّقة في لهيب النار. واختلط نواح أمها الخافت ببسملة جدتها وتناهى إلى سمعها كأنه نشيد آتٍ من عالم بعيد. إن الحياة مع أمها وجدتها لم تعد تطاق. وكان عليها أن تفرّ من وجهيهما منذ زمن بعيد.. تهيم إلى حيث تقودها قدماها. فليس في البيت من يعاني من خصامهما الدائم ما تعانيه هي. خصام لم ينقطع أبداً. وإنها لتتذكر جيداً تلك المعركة التي شبّت بينهما يوم كانت طفلة، ولا تستطيع أن تنساها. وكانت جالسة في حجر جدّتها تصغي بشوق إلى حكاياتها. وكانت أمها تجلس قبالتها في "الليوان" وهي تخيط قميصاً. ثم بدآ يتجادلان بهدوء أولاً، ثم علا صراخهما. وفجأة قفزت إحداهما نحو الأخرى والتحمتا في معركة ضارية. وتشبثت كل منهما بشعر الثانية وراحتا تتدحرجان على الأرض. وسالت الدماء على خدودهما وتشعّث شعرهما وبدا منظرهما مرعباً. ثم تمزق قميص أمها وبدت بطنها البيضاء. فاستولى عليها رعب شديد، وانتفض جسدها كالريشة في مهب الريح. وتملكتها نوبة بكاء حادة. وواصلت البكاء طوال الليل..

صرّ باب الدار صريره الغليظ كلما فتح أو أغلق. وحوّلت حليمة أنظارها نحوه فلاح لها السروال الأزرق المبقّع بالزيت. ها قد أتت البليّة الكبرى. وصاح عمر حالما دخل المنزل: الغدا حاضر؟

فنهضت حليمة وكشفت عن القدر، فانبعثت رائحة الطعام الناضج. تذوقت ماء المرق ثم قالت: الغدا حاضر.

فقال عمر وهو ينطرح على الحصيرة بجوار الأم: يا الله صبّي الأكل بسرعة.

وشبك يديه تحت رأسه ونظر إلى أمه من زاويتي عينيه فبدا له وجهها كئيباً، فتساءل: ما بك؟

فلم تجب الأم. فعاد يتساءل آمراً: ما بك؟

فقالت الأم في انكسار: ما بي؟ ذليلة في بيتي. لا أقدر أن أقول كلمة واحدة.

فقطعت الجدة بسملتها وهتفت: خلّي في قلبك قليلاً من الرحمة والإنصاف. اتقي الله.

فلم تلتفت الأم إليها واستمرت تقول: لا أقدر أن أقول كلمة واحدة في بيتي. سألت حليمة عن الغداء فانتهرتني وكأنني خادمة.

فقال عمر موجهاً الخطاب إلى حليمة: أنت يا صاحبة الخِلقة الوسخة، ألا تكونين آدمية إلاّ إذا سحقت رأسك؟!

صاحت الجدة: تسحق رأسها؟ لماذا؟ أمك هي المذنبة..

فاعتدل عمر مادّاً ساقيه أمامه وقال: أنا لا يهمني من هو المذنب، وإذا شكت منها أمي مرة أخرى عرفت شغلي معها.

فقالت الأم: ومتى كنت مذنبة؟ أنتما تكرهانني.

فرمق عمر حليمة بنظرات شزرة وقال: ماذا كنت تفعلين لو خلق الله لك وجهاً كوجوه البشر يا خلقة "البوجي"؟! تحرّشي بأمي مرة أخرى وسأريك.

تمسكت حليمة بصمتها وهي عاكفة على تهيئة الغداء، ثم حملت صينية الطعام إلى عمر. وانسحبت إلى ركنها الدائم بجوار الموقد.. "متى أخلص من إهانات عمر يا ربّي؟! متى؟ أهذا هو جزاء حبّي له؟!" كانت تحبه من كل قلبها، أكثر من أي إنسان في الوجود. كان ولدها وأخاها. وكانت تبني له في أحلامها مستقبلاً عظيماً، ولعلّ ذلك سرّ غضب الله عليها، فهو الذي يوزع الحظوظ، وما كان من حقها أن تتدخل في شئونه. كانت تريده أن يصير رجلاً خطيراً يتحدث عنه سكان "محلّة الفضل" جميعاً. لعلّه يصبح طبيباً مشهوراً يتكالب أهل المحلّة على عيادته، أو مهندساً كبيراً يبني قصوراً فخمة كقصور "الوزيرية". لكنّه خيّب آمالها. وشبّت عداوة غريبة بينه وبين المدرسة. كان يهرب من المدرسة ليلعب في الطريق. وبذلت كل جهد لتحبّب إليه المدرسة. كانت تقتطع من المصروف اليومي لمنحه مكافآت على ذهابه إلى المدرسة. فكان يأخذ الفلوس ويوهمها أنه ذاهب إلى المدرسة ويقضي الوقت كله في الطريق. فأخذت تقسو عليه وتضربه فازداد عناداً وتمرداً. وكانت تخوض مع أمها معارك دائمة لأنها تدافع عنه. وكان هو يزداد تمرداً يوماً بعد يوم. وبينما كانت تحاول يوماً الإمساك به لتعاقبه على تغيّبه عن المدرسة هجم عليها وسدد إلى وجهها لكمة أصابتها في أنفها فسالت منه الدماء. وفرّ

من المنزل وبات ليلته في بيت حامد الفترجي ذي السمعة السيئة. فادركت أنها فقدته نهائياً. وزفرت حليمة زفرة حرّى وهمهمت: "أوف ربي، لِمَ؟ لِمَ؟"

ثم أجهشت فجأة بالبكاء، وارتعد جسدها بشدة. وحاولت أن تكبت بكاءها، لكن صوتها تعالى في نهنهة متصلة. وتملّكتها نوبة لا تقاوم. صاحت الجدة في حنق: الله ينتقم من الظالم. ما الذي جنته هذه الطفلة حتى يسلّط الله عذابكم عليها؟!

فصاح عمر: موت. أي والله موت. كان يجب أن أسحق عظامك حتى يكون لبكائك سبب.

وقامت حليمة وهي تحاول عبثاً كبت بكائها، وانسلّت إلى غرفتها وأغلقت الباب. وظل صوت بكائها المكتوم يُسمع طويلاً من وراء الباب.

٣ - بصيص من الأمل

لم تكن "سوق الفضل" قد ازدحمت بزبائنها بعد. وحينما وصلت حليمة إلى دكان الحاج مهدي لم ترَ أي زبون. كان فتّاح يستوي وراء الدكة الخشبية وشعره الأسود الطويل ينسدل إلى الوراء ويكاد يلامس كتفيه. قالت باقتضاب وهي تناوله صحنها: ربع ونصف قيمر.

فوضع فتّاح الصحن في الميزان وتريّث دقيقة مفكراً، ثم التفت إليها وتساءل: ألا تحبين أن تأخذي جبناً بدل القيمر؟

فقالت حليمة: لماذا؟ أنا أريد قيمراً.

ففكر فتّاح مرة أخرى، ثم رفع الصحن عن الميزان وأعاده إليها قائلاً: الأحسن أن تأخذي شيئاً آخر. القيمر هذا الصباح لا يسوى.

فتساءلت حليمة: لماذا تعرضه للبيع إذن؟

فقال وهو يحدّق في وجهها بنظرات جريئة: أنا لا أحب أن أبيع من هذا القيمر لزبونة مثلك.

فغضّت أنظارها وقد تضرّجت وجنتاها وخفق قلبها وتمتمت: أعطني بيضاً بدله.

وعجزت لأول مرة في حياتها عن النظر في وجه فتّاح. كانت موجة عاتية من الاضطراب قد عصفت بها، ولم تعرف لتلك الموجة مثيلاً. تناولت البيض وانصرفت مسرعة وهي تتعثر بخطواتها.. "ولِمَ العجلة؟ أبي لم يصحُ بعد، والشاي على النار". كان ثمة رغبة طاغية تشدّ قدميها إلى الدكان، لكنها أسرعت في سيرها حتى كادت تهرول. وكانت تتخيّل أن عينيّ فتّاح تطاردانها. فلمّا أشرفت على الزقاق تلفتت وراءها فلم ترَ سوى الكنّاس. وتمهّلت في سيرها، وتوقفت لحظة. خطر لها أن تعود إلى الدكان وتشتري حاجة أخرى. ومكثت في موضعها لحظات وهي تهمّ بالعودة من حيث أتت وقد استبدت بها الحيرة. ثم هرعت نحو المنزل وكأنها تفرّ من خواطرها.

كان الأب قد أفاق وتربّع على الحصيرة في انتظار الفطور. انسلت حليمة عبر باب غرفته في هدوء حتى لا يشعر بعودتها. كان قلبها يخفق في عنف وكأنه يصفق لخبر سارّ، وكان ثمة شعور لذيذ غامض يتسرب بهدوء إلى كل عضو في جسدها. ولم تفارق صورة فتّاح مخيلتها.. أكان

القيمر رديئاً حقاً فرفض فتّاح بيعها منه؟! كلا، هذا لا يصدق، فهو وأبوه لا يباليان إن كانت البضاعة جيدة أم رديئة، ولا يعرفان حرمة لأي زبون. وكم باعها الحاج مهدي، بل كم باعها فتّاح نفسه قيمراً حامضاً وبيضاً فاسداً وجبناً تالفاً. لولا غشّه الناس ما استطاع الحاج مهدي أن يجمع ثروة وأن يحج بيت الله. لكن فتّاح أحسن من أبيه وقلّما غشّها. ولعله أراد في هذه المرة أن يبرهن لها أنه لا يرغب في غشّها، هي بالذات.. "قال لا أحب أن أبيع من هذا القيمر لزبونة مثلك، فلماذا يمتنع عن بيعه لي بينما يبيعه للزبائن الآخرين؟!" وتجاوبت بين جوانحها أصداء ضحكة سعيدة، وكادت تلك الضحكة تنطلق من بين شفتيها لكنها كتمتها، فتخايلت على شفتيها بسمة سعيدة.

قدّمت الفطور لأبيها وهي باسمة الوجه. وانتهى الفطور فغسلت الصحون وأقداح الشاي، وكان الماء بارداً مثلجاً. ثم شرعت في تنظيف المنزل. وتنقلت من غرفة إلى أخرى وهي تقاوم رغبة في أن ترقص كرقص "العبدة" التي حضرت في عرس صبرية. وتشبثت رقصات تلك العبدة في مخيلتها بإلحاح، وترددت أغنية "خدري الشاي خدري" في سمعها. وما أن دخلت غرفة عمر حتى انقبضت نفسها. ووقفت في وسط الغرفة تردد أنظارها في أثاثها المبعثر وفي قطع الملابس الملقاة هنا وهناك. ثم اجتذبت عينيها صور النساء الملصقة على الجدران، فرمت المكنسة على الأرض ودنت منها وأخذت تتأملها بإمعان. ولم تكن تسمح لنفسها من قبل أن تطيل النظر إليها. لو لم يكنّ فاسقات ما كشفن عن صدورهن وظهورهن. لكن حليمة لم تشعر الآن بازدراء نحوهن. وتمنّت

أن تفعل مثلهن لتظفر بمظهرهن الفتّان. لو ارتدت ملابسهن وتزينت بزينتهن لسلبت عقول الرجال.

لاحت منها التفاتة إلى المرآة الصغيرة المعلّقة في جانب من الجدار. وطالعها وجهها الطويل بذقنه المدبب وجبهته الضيقة. صحيح أن أنفها الغليظ الطرف ليس كأنوفهن الدقيقة، ووجهها الطويل لا يضارع وجوههن الصغيرة، لكن عينيها السوداوين جميلتان جداً، وشعرها الأسود اللامع بديع للغاية. ولوأنها قصّت شعرها وتخلصت من هاتين الذؤابتين الكريهتين لفتنت الرجال. انحدرت أنظارها ألى صدرها المتوثب وتأملته في نشوة وإعجاب. حقاً إن جمال صدرها لا يبدو في هذا الثوب الطويل المزرر حتى العنق. ولو كشفت عن صدرها وظهرها شأنهن لفاقتهن سحراً.

تحولت حليمة عن الصور وانصرفت إلى عملها وسحابة من الكدر تعكر صفوها. أيمكنها يوماً أن تتمتع بحريتها؟! وأنّى لها ذلك وعمر كالسيف المصلت على رأسها؟ إنه حرّم عليها النزهات التي كانت تقوم بها إلى ضريح الشيخ عبد القادر و"الكاظم" فاختفت من أفق حياتها منذ زمن طويل. وكم تشتهي أن تأخذ معها صرّة الطعام لتتناول غداءها في جامع "الشيخ" أو في "الحضرة" أو على "السدة". كلا، إنها لن تخضع له إلى الأبد، وستثور في وجهه يوماً وإن لم يعد يجرؤ أحد على مخالفته. أجل، أجل، لا بد أن تثور في وجهه. أي حق يخوّل له السيادة على البيت؟! إنه لا يصرف عليه فلساً واحداً، وكل ما يحصل عليه من أسطى حامد "الفيترجي" ينفقه على نفسه. والحمد لله أن أباها ما يزال هو

المسؤول عن الإنفاق على البيت.. ولكن ماذا لو زاد عناداً معها؟! ماذا لو ركب رأسه ورفض الموافقة على زواجها إذا تقدّم فتّاح لخطبتها؟!

استولى عليها الذعر، وتوقفت عن الكنس. وظلت جالسة القرفصاء وهي واجمة والمكنسة مرفوعة في يدها. ثم نبدد وجومها شيئاً فشيئاً وعادت تكنس الأرض بتراخٍ وهي تهز رأسها.. ربما تذكر حبها القديم له. ربما تذكر كيف كانت تحمله على كتفها وهي تكنس المنزل فيأبى أن يهبط إلى الأرض.. لكأنه كان يمتطي كتفها بالأمس فقط! وارتسمت البسمة السعيدة على ثغرها ثانية.

فرغت حليمة من تنظيف غرفة عمر، وكان النهار قد تقدم وحان ميعاد إعداد طعام الغداء. وشعرت حليمة برغبة في طهي لون يحبه الجميع. قالت تخاطب جدّتها: ألا تشتهين أكلة يا بيبي؟

فقالت الجدّة وهي ترنو إليها بحنان: كل ما تطبخه يدك شهي يا حلّومة.

فقالت حليمة بإلحاح: قولي إذا كنت تشتهين أكلة لأطبخها لك.

فقالت الجدّة: عيني حلّومة، لا أريد تعبك. كل ما تطبخه يدك شهي. كل ما أتمناه في دنياي أن أراك مثل اليوم ضاحكة الوجه.. اللهم صلّ على محمد وآل محمد.

قالت حليمة وهي تسارق أمها النظر: سأطبخ لكم اليوم "كبة حامض".

وكانت الأم قاعدة على "تختة" في "الليوان" وهي تصلح قميصاً بين يديها. وكانت تتظاهر بعدم الالتفات إلى ما يدور حولها من حوار. لكن الاهتمام لاح على وجهها بصورة مفاجئة حينما طرقت كلمة "الكبة"

سمعها، وتطلعت إلى حليمة مدهوشة. وكان الكلام قد انقطع بينهما منذ خصام أمس. وعجزت عن مقاومة رغبتها في التعليق، فقالت دون أن تحوّل أنظارها عن القميص: والله صار لنا زمان عن الأكلات الشهية.

وسكتت لحظة ثم قالت وهي ترنو إلى حليمة: والواحد يقول الحق أنت تطبخين "كبة الحامض" أحسن من كل واحدة.

فقالت حليمة وهي تتجنب النظر إلى أمها: إذا كنت تحبين أن تأكلي "كبة حامض" فلا تلوميني، فسيتأخر الغداء.

فهتفت الأم فرحة: لا، لن ألومك حتى لو صار الغداء عشاء.

أشرق وجه الأم بالبهجة وتفتحت شهيتها. وأضافت في حماسة: سأعاونك.

فقالت حليمة: إذا أحببتِ.

ولاح التردد على وجه الأمّ وقالت وهي تنظر إلى حليمة في رجاء: أمّ عيشة تحب "كبة الحامض"، ومنذ مدة لم تطبخها.. وسيكون مكانها خالياً.

أسرعت الجدة تدمدم: هل تريدين أن تجعلي غداءنا سمّاً بدعوة أمّ عيشة؟ والله ما صارت.

فعبست الأم ولكنها لم تتكلم. وتعلقت عيناها بوجه حليمة وهي تترقب جوابها بلهفة. وعكّر ذكر أمّ عيشة على حليمة هناءها وهمّت برفض اقتراح أمها، لكن قلبها كان متفتحاً للبهجة. كان بودّها أن تغمر كل من حولها بفيض سعادتها. فتمتمت: اذهبي إليها وادعيها للغداء.

فهتفت الأمّ بفرح: فديتك يا عيني حلّومة.

حين أوت حليمة إلى فراشها لم تحسّ بتعب شأنها كل مساء. كان ثمة راحة عميقة تنبع من أعماق فؤادها. ورقد قلبها الجريح بين ضلوعها في اطمئنان لأول مرة منذ زمن طويل. أغمضت عينيها فمرّت في خيالها صور النهار سريعة خاطفة. واختلط وجه فتّاح بوجوه جدتها وأمها وأبيها وأم عيشة وعمر، وغمرتها عواطف تفيض بالشوق والحب والحنين. وفتحت عينيها وهي تبتسم ابتسامة سعيدة، ثم أغمضتهما ثانية حينما طرق سمعها خفق قدميّ جدتها، ولذّ لها أن تتظاهر بالنوم. وبدا لها مطلع الصبح حلماً سعيداً. ثم تذكرت عمر وصور النساء الجميلات وتمثلت لها صورتها في المرآة. فسألت جدتها فجأة: لماذا سخط الله عليّ يا بيبي وحرمني من الجمال؟

هتفت الجدة بجزع: أستغفر الله العليّ العظيم. أستغفر الله العليّ العظيم. لا تكفري يا حلّومة فالله لا يسخط إلاّ على الظالمين.

اشتد انقباض حليمة، وتراءى لها أن الحظوظ لا توزّع بعدالة على البشر. فهناك نساء جميلات يتنافس الرجال في محبتهن، وهناك نساء دميمات لا يحبهن أحد، ولا يهتم لهن أحد. تمتمت وكأنها تحدّث نفسها: أنا غير جميلة، لذلك لم يفكر أحد بخطبتي.

فقالت الجدة بانزعاج: أستغفر الله وأسألك التوبة. ماذا جرى لك يا حليمة؟ كيف تكفرين هكذا؟ والله لم يمتنع "الخطّابة" عنك إلاّ لخوفهم من الرفض.

ازدحمت في ذهن حليمة أحاديث جدتها عن عريس المستقبل. وتذكرت كيف كانت تتحدث من وقت طويل عن "ابن الحلال" الذي

سينتزعها من هذا البيت ويحملها إلى بيتها، فيترك الجدة وحيدة مستوحشة. وكانت تحسّ لتلك الأحاديث نشوة عميقة، لكنها فقدت عذوبتها سنة بعد أخرى، وتراءت لها الآن سخيفة مضللة. قالت بمرارة ويأس لاذع يدمي قلبها: أنا لست طفلة فلا تخدعيني بمثل هذا الكلام يا بيبي.

قالت الجدة بمرارة: لماذا تكسحين نعمة الله بهذا الكلام يا حلّومة؟! ماذا يشينك؟! ألنت عرجاء أم خرساء أم عوراء؟! مَن له مثل شعرك الطويل الذي يصل إلى ركبتيك لو أطلقتِه؟ ومَن له مثل عينيك اللتين كحّلهما الله سبحانه وتعالى؟ قسماً بالله ونبيّه العربيّ أن من يتزوّجك صاحب حظ. فأنت أحسن أمّ بيت في محلة "الفضل" كلها. مَن تقدر أن تطبخ مثل طبخك؟ ومَن تقدر أن تخبز مثل خبزك؟ مَن يدير البيت مثلك؟

تبددت كآبة حليمة وعاودها الرضا، وبدا لها كلام جدّتها صادقاً.. "مَن التي تضاهيني من بنات المحلة في شطارتي؟ مقبولة أم نزيهة أم صبرية؟" والرجل العاقل لا يبغي سوى زوجة تعدّ له أحسن الطعام، وتحافظ على ملبسه نظيفاً، وتوقف حياتها على خدمته. صدقت جدّتها. إن من يتزوجها محظوظ، فستكون طوع أمره، وستجعل حياته سعيدة هانئة. وسيدرك أن بين حناياها قلباً من ذهب، فيحبها أعظم الحب.

واجتاح حليمة اشتياق عميق إلى الزوج المحب، إلى جسده الدافىء، إلى ذراعيه القويتين، وأغمضت عينيها بسعادة وتخيّلته وهو يهصرها ويغمر وجهها بالقبلات. وطوّفت بها الأحلام في دنيا المستقبل. سيكون لها بيت صغير جديد لا تسرح فيه الفئران والصراصر. وستكنسه وتغسله كل يوم حتى تجعل أرضه كالمرآة. وستطبخ طعاماً لا تطبخ مثله امرأة.

وستنتظر كل ليلة زوجها إلى أن يعود من سهرته حتى ولو عاد مع الصباح. وستعدّ له جلباب النوم، وستخلع له ملابسه بنفسها. وسيكون لها أطفال محبوبون كعُمَر في صغره..

وترامت إلى أذنيها تسابيح جدّتها المنغومة وكأنها غناء بعيد. وطافت في مخيلتها صور مشوشة من طفولتها، وتخيّلت نفسها راقدة في مهدها وجدّتها تغني لها. وكان ثمّة شعور مبهج يطفو فوق هذه الذكريات السعيدة.. شعور بتوقع لذيذ لمطلع الصباح ولتلك الساعة التي ستخرج فيها لشراء الفطور. وتسلل النوم إلى عينيها فظلتا مغمضتين، وتواصلت الأحلام السعيدة في أفق خيالها..

"حلّومة عيني. حلّومة. قومي صار الصبح".

وبدأ يوم جديد.

٤ - رجل الأحلام

نهضت حليمة نشيطة، فرحة، ولمّت فراشها مسرعة. وارتدت عباءتها وهمّت بالخروج. ألقت نظرة على وجه جدّتها الأسمر المغضّن وقد تدلت سوالفها البيض من تحت عصابتها السوداء وشعرت أنها تكنّ لها حباً عظيماً.. "كيف أحتمل البيت لو فقدت جدتي؟" واستعاذت بالشيطان وغادرت الغرفة عجلة وهي تلتفّ بعباءتها. كان البرد قارساً ينفذ إلى العظم. صعدت حليمة إلى السطح مرحة، خفيفة، وهي تتذكر فرحها بيوم العيد حينما كانت طفلة. وكسرت الأخشاب وأشعلت النار فتصاعد الدخان كالثعبان.

صحا الأب وخرج إلى "الليوان" وهو يتدثر "بفروة" ويعتمر بطاقية صوفية. واتجه إلى صنبور الماء ليغسل وجهه فقالت حليمة: سخنت لك ماءً حاراً يابه.

قال وهو يشمّر عن ذراعيه ويجلس القرفصاء بجوار البالوعة: جازاك الله خيراً يا حليمة.

صبّت حليمة الماء من إبريق النحاس على يديه وهي تتأمل وجهه. كان وجهه الذابل الشديد الغضون بأنفه المقوّس الكبير وعينيه الغائرتين صورة ممسوخة طمسها الزمن.

نهض الأب صامتاً ومشى نحو غرفته في هيئته الذاهلة. واقتعدت حليمة الأرض بجوار "المنقلة" وعيناها مغرورقتان بالدمع: "آخ يابه، مَن يصدق أنك ذلك الأسد الذي كانت الأرض تهتز تحت قدميه؟" كان ذا شارب كثّ غزير. وكانت نظرات عينيه البراقتين تبث الهيبة في القلوب. ولكنها قتلته. إنها لم ترحمه أبداً. لم يكن في قلبها ذرة من الرحمة. وكأن الله أودع في قلبها من القسوة بقدر ما أودع في وجهها من جمال. لم تكن تستقر في البيت ساعة واحدة. كانت تأخذ زينتها كاملة وتنطلق إلى بيت أم عيشة أو إلى منزل من منازل "باجياتها" الكثيرات. وكلما حضر إلى البيت لم يجدها. وفي معظم الليالي كان الشجار يشبّ بينهما. وكان صوته الجهوري يلعلع في سكون الليل. وكانت تخفي رأسها بين طيّات اللحاف وجسدها يرتعد فرقاً. وما أكثر ما سألت جدّتها عن سبب عراكه مع أمها فردت عليها حزينة: "إنه حظ أبيك المسكين". ثم خفتت حدة عراكهما شيئاً فشيئاً حتى انطفأت، وانطفأ معها البريق في عينيه. وبات

كالغريب في الدار. لم يعد يحضر إلى المنزل إلاّ قليلاً. كان يتناول فطوره ويخرج إلى دكانه مبكراً، قبل أن يصحو أحد. وكان يتناول غداءه في الدكان ولا يعود إلى البيت إلاّ في منتصف الليل وهو مسطول. وقد يعود مع الفجر.

مسحت حليمة دموعها بكمّها وهمست: أوف ربي، لِمَ؟ لِمَ؟

ونهضت وآثار الدموع ما تزال في عينيها، وقصدت إلى غرفة أبيها. كان قد ارتدى ملابسه وتربع على الحصيرة صامتاً. وكان مطرقاً وقد أطلت من عينيه نظرة شاردة. وخالجتها الرغبة في أن تلقي بنفسها على كتفيه وتبكي طويلاً. كانت مصيبتها تهون في عينيها كلما فكرت بمصيبة أبيها. كبحت عواطفها الحزينة وتساءلت برقة: ماذا تحب أن أشتري اليوم يابه؟

قال دون أن يرفع إليها أنظاره: اشتري لنا قيمراً يا حليمة.

وأخرج كيسه وناولها النقود، فقالت وهي ترنو إليه بحنان: تؤمر يابه.

نسيت حليمة أحزانها حالما غادرت الدار. ومثلت في ذهنها صورة فتّاح خلابة ساحرة، وفاض قلبها ببهجة عارمة. وخيّل إليها وهي تجتاز الزقاق أنها لن تعدل به أجمل مكان في الدنيا. وبدا لها أن سلّومي ابن زهرة والكنّاس وحسن المجنون أشخاص أعزاء على قلبها. وأحست وهي تدخل السوق أن أصحاب الدكاكين والزبائن وبائعات الخبز جميعاً قريبون إلى قلبها. وكانت صورة فتّاح تطفو في مخيلتها فوق هذه الصور جميعاً. وكانت سرعة قدميها تزداد كلما قصرت المسافة بينها وبين دكان الحاج

مهدي. وكان خفق قلبها يشتد عنفاً لحظة بعد أخرى. وعندما لاح لها فتّاح من بعيد وهو يستوي وراء الدكّة دوّت ضربات قلبها دويّاً عالياً، وتلفتت حواليها وهي تحسب أن السابلة قد فطنوا لأمرها.

استقبلها فتّاح ببسمة ترحيب، فقالت بصوت خافت دون أن تجرؤ على النظر في وجهه: صباح الخير.

فردّ عليها بمودة: صباح النور والسرور.

قالت وهي تنقّل أنظارها بسرعة بين وجهه وإناء القيمر: أتبيع من القيمر اليوم؟

فقال وهو يرميها بنظرات جريئة: القيمر هذا اليوم زبد.

قالت وهي تحاول عبثاً مقاومة خجلها: زِنْ لي ربع قيمر.

تناول فتّاح الصحن وانشغل في عمله. واختلست حليمة نظرات فاحصة من وجهه فاجتذبها شعره الأسود اللامع، وبدا جبينه العريض مشرقاً وضّاء. إنه أجمل شاب في محلة الفضل.. إنه أجمل حتى من عمر. قالت وهي تلاحظه يزيد لها في الكيل: والله عيارك بركة.

قال فتّاح وهو يحدجها بنظراته الجريئة: هذا واجبنا.

خفق قلبها بشدة، وتساءلت وهي تتلفت حولها بقلق: أهكذا تعامل جميع زبائنك؟

قال فتّاح ونظراته الجريئة لا تحيد عن وجهها: لا يوجد زبائن مثلك.

فتسارعت ضربات قلبها واستحال لونها الأسمر الغامق إلى أحمر قانٍ، وطافت على شفتيها بسمة حائرة. وصمتت لا تدري ماذا تقول وقد جفّ ريقها والتاثت أفكارها. ثم تناولت الصحن عجلة وقفلت عائدة إلى

المنزل وهي توشك أن تهرول. ولمّا انعطفت في الزقاق تباطأت قدماها، ومشت متمهلة. كان قلبها يفيض بفرح غامر. واستعادت صورة فتّاح في مخيلتها وعجبت كيف غاب عنها جماله من قبل. واعتراها الأسف على ضياع الأيام الماضية من عمرها دون أن تستمتع بحبه. لا شك أنها غبية، بليدة، مغمضة العينين. فلقد أحبها فتّاح منذ زمن بعيد من دون أن تفطن إلى ذلك. من يدري؟ لعله ليس الوحيد المغرم بها، فكثيراً ما التهمها شبان السوق بنظراتهم. لكنها لن تفضل أحداً منهم على فتّاح. لن تفضل عليه أي رجل في الوجود.

اشتبكت الخواطر في رأسها فلم تعد تميز شيئاً. لكن خاطرة واحدة طفت على خواطرها المائجة وتبدت كحلم باسم.. لقد عثرت على رجلها.

٥ - السر يفتضح

كان الشتاء قد أشرف على الانتهاء، وكانت نسمات الربيع تهب عذبة هادئة. وتربعت الجدّة على سجادة الصلاة وهي متلفعة بردائها الأبيض وانهمكت في ترديد تعاويذها. ومدت الأم ساقيها على الحصيرة وأسندت ظهرها إلى الجدار وبدا في نظراتها الانشغال. وكان طعام العشاء على وشك النضوج. وكانت حليمة تراقب القدر وذهنها يجترّ لقاءها الأخير مع فتّاح وابتسامة سعيدة ترف على ثغرها. وفجأة صفق باب الدار وارتطم بالجدار واندفع منه عمر كالعاصفة. كان وجهه مربدّاً وعيناه مزورتين. وهجم على حليمة من دون أن ينطق كلمة وانهال عليها لكماً ورفساً وصفعاً. وتلقت حليمة ضرباته باستسلام وكأنها قدر لا يرد. قفزت

إليه الجدة مرعوبة تتعثر برداء الصلاة وتشبثت بتلابيبه، وصرخت: ستقتل الطفلة يا كافر. ستميتها، الله لا يغفر لك.

وهرعت الأم إليه وهي تردد متضرعة: عيني عمّوري لخاطر راسي.. عيني عمّوري لخاطر راسي.

ومضى عمر يردد كالمحموم وهو يسدد اللكمات والركلات إلى حليمة: دعوني أقتلها. دعوني أسحق رأسها. والله لا أتركها حيّة اليوم.

واحتقن وجهه الناصع البياض، وتهدلت خصلات شعره الأسود الغزير، ونضح العرق من وجهه، وبدا كالثور الذبيح. وتمزق رداء الجدة وأعيتها المقاومة فهوت على الأرض. واستسلم عمر أخيراً لمقاومة الأم فجرته بعيداً عن الموقد. وكانت حليمة قد تسمرت في موضعها بجوار الموقد. وكان شعرها قد تشعث وبدت في وجهها بقع حمر. وما أن أفلتها عمر حتى انسلت إلى غرفتها. وتساءلت الأم أخيراً في رفق: ما الذي فوّر دمك يا عمّوري؟

هتف عمر في سخرية غاضبة: ما الذي فوّر دمي؟ حضرة صاحبة الخلقة الوسخة تصادق الرجال.

فصاحت الجدة مهتاجة: سوّد الله وجهك يا كافر. حليمة تاج الملوك.

هتف عمر بخشونة: اسكتي يا بيبي، ماذا تعرفين أنت؟ رأيتها عصر اليوم تتمشى مع فتّاح بن الحاج مهدي البقال في "الوزيرية".

فصاحت الجدة: لعن الله الكاذب. أنت تكرهها. أنت تريد أن تتحمل خطيئتها في الآخرة.

قالت الأم برفق: ربما كنت متوهماً يا عمّوري.

فصاح عمر مهتاجاً: رأيتها بعيني، فكيف أكون متوهماً! كيف أكذّب عيني؟

هتفت الجدة: أي أنت متوهم. إنها شبّهت لك لأنك تكرهها، يا من لا يخشى عقاب الله يوم القيامة.

فالتفت إليها عمر وقال حانقاً: أسكتي يا بيبي. ماذا تعرفين أنت؟

فاستمرت الجدة تدمدم حانقة: يا من لا يخشى الله. يا من لم يتوجه إلى "القبلة" يوماً. الكافر. ما ذنب الطفلة حتى ابتلاها الله بك؟

وقامت الجدة وهي تدمدم ساخطة ودلفت إلى الغرفة. كانت الغرفة غارقة في الظلام إلاّ شعاعاً ضئيلاً من النور ينعكس على السقف من كوّة في أعلى الجدار. وكانت حليمة راقدة على فراشها وقد تسمرت عيناها في السقف. فتحت الجدة الباب بهدوء وهي تتلمس طريقها نحو الفراش وتساءلت: عيني حلّومة، أنت نائمة أم صاحية؟

فلم تردّ حليمة. لم تكن تحسّ برغبة في التحدث مع أي إنسان. كانت حالة من الذهول والرعب والحيرة تبتلع كيانها. هل انكشف سرّها حقاً؟ وماذا في نيّة عمر أن يفعل؟ وأي تدبير تتخذ كي لا تحرم من رؤية فتّاح؟ كانت الأسئلة تتثال على ذهنها وهي عاجزة عن الإجابة عليها. ولم يتحرك جسمها كما لو أنه شدّ إلى الفراش، ولم تزورّ عيناها عن السقف. وبدا الظل المنعكس على السقف كحيوان غريب ذي وجه كوجوه البشر. وتسمّرت أنظارها على ذلك الظلّ وهي لا تفكر بشيء. ثم خيّل إليها أن الأصوات الخافتة التي تتناهى إليها من "الليوان" تتآمر على سعادتها. واشتدّ الهمس رويداً رويداً وانبعث من كل الجهات. من جدران الغرفة،

من السقف، من فراش الجدة، من صندوق الملابس، من تحت فراشها، من كل مكان. وانتابها رعب شديد، وارتعد جسمها، فدفنت رأسها في الوسادة وأغمضت عينيها. وكادت صرخات الرعب تفلت من بين شفتيها لولا أنها عضت الوسادة بشدة. ثم انقطع الهمس دفعة واحدة، ففتحت عينيها وقد استقر في قلبها عزم مكين. كلا، لن تسمح لأحد أن يهدّم سعادتها، عمر أو غيره. وأي حق لعمر في أن يحطم حياتها؟.. "إنني تحملت أذاه كثيراً، ولن أتحمله بعد اليوم". يكفيها أنها ظلت تخشاه طيلة هذه السنين.. وقد يقتلها يوماً إن بقيت تعيش في هذا البيت تحت رحمته. كلا، إنها لن تطيق العيش في هذا البيت بعد الآن، ولا بدّ لها أن تفرّ منه. فلن تستطيع بعد أن تستمع إلى إهانات عمر، لا تستطيع أن تحتمل خصام جدتها وأمها الدائم، لا تستطيع أن تكنس وتنظف وتطبخ كل يوم. ستسأل فتّاح أن ينقذها من هذا الجحيم، وسيفعل. إنها واثقة أنه سينقذها من هذا الجحيم فهو يحبها بكل قلبه.

٦ – أين المفر؟

سارت حليمة مسرعة وهي ملتفعة بعباءتها لا يبين منها سوى نصف وجهها. وكانت تتلفت وجلة وهي تتخيل عمر متوارياً وراء كل عطفة أو شجرة. إنه لن يفلح في التفريق بينهما. ليتخذ ما يشاء من التدابير لاعتقالها في البيت فلن ينجح في مسعاه. وستخرج لملاقاة فتّاح مهما ضرب حولها من سدود. وكيف يمكنها التخلي عن فتّاح وهو كل أملها في الحياة؟!

بلغت المكان المعتاد فبرز فتّاح من وراء شجرة وسار بجوارها وهو مقطب الوجه. وتساءل بامتعاض من دون أن ينظر إليها: لماذا تأخرت حتى الآن؟

قالت وهي تتلفت حواليها بقلق: سأخبرك فيما بعد. لنذهب إلى مكان آخر "فالوزيرية" غير مأمونة.

فتساءل فتّاح بقلق: لماذا؟ هذا المكان آمن من غيره.

قالت حليمة وهي ما تنفك تتلفت حواليها: سأخبرك فيما بعد، ولنذهب إلى مكان آخر الآن.

حكّ فتّاح جبينه مفكراً ثم قال: أعرف مكاناً أميناً.. تعالي معي.

سارا مسرعين نحو جسر الصرافية. واستقلا "الباص" من هناك، ثم تركاه في أول محطة بعد الجسر. ومشيا قليلاً مع السكة المهجورة ثم انعطفا وراء مقبرة صغيرة. ولم يتبادلا الكلام طيلة الوقت. وما أن جلسا على صخرتين متجاورتين وراء سور المقبرة حتى قال فتّاح بامتعاض: أنا اعتقد أن مكاننا الأول أحسن وآمن. لماذا بدّلته؟

قالت حليمة: اكتشف عمر سرّنا. رآنا نمشي معاً في "الوزيرية" عصر أمس.

ظل فتّاح صامتاً دقائق خيّل لحليمة أنها ساعات. ثم تساءل بلهجة جامدة: وماذا قال؟

قالت بعدم اكتراث: ضربني ضرباً شديداً وتوعدني بالقتل إن خرجت معك مرة أخرى.

هتف فتّاح بانزعاج: القتل!

التفتت إليه حليمة وقد شعت عيناها بالحب وقالت بعزم: إنه لن يفرّق بيننا يا فتّاح. لن يفرّق بيننا. ليقتلني إذا شاء، لكنه لن يفرّق بيننا.

قال فتّاح متردداً: هذا كلام مجانين يا حليمة.

تساءلت حليمة في وجل وهي تنظر إلى المصابيح البعيدة الخابية: وما العمل إذن؟

فلبث فتّاح صامتاً. وهيمن على المكان صمت لم تكن تعكره سوى أصوات أبواق السيارات البعيدة وصرير الجنادب. وأسرعت دقات قلب حليمة وتوقعت أن يقول فتّاح ما يجول في ذهنها، لكنه لبث مستمسكاً بالصمت وهو يعبث بالأرض بإصبعه. قالت حليمة أخيراً بصوت مضطرب وهي تحدق في المصابيح البعيدة: هناك طريقة سهلة تخلصنا من هذا التعب يا فتّاح.

تساءل فتّاح دون أن يلتفت إليها: ما هي؟

قالت وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة: تخطبني من أهلي.

فلم يردّ فتّاح. وخفق قلب حليمة بعنف حتى حسبت أن فتّاح يسمع خفقانه. كانت اللهفة المحرقة والقلق الحاد يصطرعان بين جوانحها، وبدا لها في غموض أن جوابه سيغيّر حياتها. وطال صمت فتّاح لكن حليمة لم تجسر على الكلام. وتلاشت مشاعر اللهفة في صدرها وداخلها اليأس. وأخيراً التفت فتّاح إليها وقد انبسط وجهه وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة: أتدرين بم كنت أفكر يا حليمة؟

خفق قلب حليمة، وداعبتها الآمال من جديد. تساءلت بلهفة: بِمَ؟

قال والابتسامة الرقيقة لا تفارق وجهه: بترتيبات الخطبة. كنت أقلّب في ذهني أسماء الرجال الذين يجب أن يصحبوا أبي عند قدومه إلى بيتكم ليخطبك.

هتفت حليمة في سرور غامر: عيني فتّاح، والله لن تندم أبداً. سأكون لك أحسن زوجة، وسأطيعك لحدّ الموت.

فمال عليها وقبّلها في فمها فلم تمانع. واستسلمت حليمة إليه وقد غمرتها نشوة أنستها نفسها. وطافت الأحلام في مخيلتها، وتخيلت نفسها وهي تروح وتجيء في بيتها الصغير سيدة آمرة لا يهينها أحد. وانسحب فتّاح فجأة عنها وأخذ يتطلع إليها صامتاً وكأنه يهمّ بقول شيء. فتعلقت عيناها بعينيه وترقبت بلهفة كلامه وقد عاودها القلق. تساءل فتّاح ببطء وهو يحدق في وجهها بنظرات غامضة: أتطيعيني إلى حدّ الوت حقاً؟

قالت حليمة بحماسة وقد اطمأنت نفسها: مرني أن أرمي نفسي في الشطّ أفعل.

فصمت برهة وهو يحدجها بنظراته الغامضة ثم قال ببطء: وإذا طلبت منك الآن طلباً أسهل من الموت بكثير، هل تنفذينه؟

فانقبضت نفس حليمة وقالت بخوف: اطلب.

فاحتضنها بقوة وقال: ما دمنا سنتزوج قريباً فدعينا نتمتع.

نظرت إليه متوسلة وقالت: لا، لا يا فتّاح. لا داعي للعجلة. كلها أيام ونتزوج على سنة الرسول.

فانسحب عنها وتساءل وقد عبّس وجهه: وما المانع الآن؟ لن يعلم أحد بالأمر. ثم إننا سنتزوج.

قالت حليمة بلهجة رقيقة يمازجها الخوف وعيناها تتوسلان إليه: وليلة الدخلة يا فتّاح؟! سينتظر أهلك على باب غرفتنا.

وسكتت لحظة، ثم أضافت متضرعة: كلها أيام يا فتّاح فالعن الشيطان.

قال فتّاح بلهجة بطيئة وهو ما يزال عابس الوجه: إذن أنت لا تحبينني حقيقة.

فقالت حليمة بمرارة وقد جفّ ريقها: كلها أيام وأكون ملكك تفعل بي ما تشاء.. العن الشيطان يا فتّاح.

قال فتّاح مغضباً: ألم تقولي قبل دقائق أنك ستطيعينني إلى حدّ الموت، فهل كنت تكذبين عليّ؟

وعصفت بها حيرة مرّة، ولم تدر ماذا تفعل. وتشابكت في ذهنها الصور؛ وهمست بدون وعي: لا. لا. لن أفعل هذا أبداً.

فطوّقها فتّاح بين ذراعيه، وضمّها إلى صدره وقد تملكته رغبة جامحة وراح يردد كالمحموم: والله لا تخافي.. لن يعلم أحد بالأمر أبداً.

دفعته حليمة عنها بقوة وزحفت إلى الوراء فزعة. ثم التقطت عباءتها والتفت بها بقوة. فنهض فتّاح محنقاً مغيظاً وهتف: إذا لم تطيعيني الآن قطعت علاقتنا.

فالتفت حليمة بعباءتها بقوة وقالت لاهثة وهي ترمقه بنظرات فزعة: لا. لا. لن أفعل هذا أبداً يا فتّاح.. لن أفعله أبداً.

وأخذ جسدها يرتجف بشدة، وسرت في ظهرها قشعريرة حادة. واستوى فتّاح واقفاً وقد استبد به الغيظ. ثم قال لجأة بلهجة ساخرة

وصوته يرتجف: هل تحسبينني مجنوناً لأتجوز امرأة مثلك؟ وهل هناك رجل عاقل يفكر بالزواج من امرأة لها وجه أطول من الحذاء؟ إياك أن تريني وجهك القبيح مرة أخرى، وإياك أن تقربي دكاني، فلا أريد أن أنتفع منك بفلس واحد.. يا وجه الحذاء.

وألقى عليها نظرات ازدراء، ونفض ذرات التراب عن ملابسه، ثم مشى مسرعاً باتجاه الجسر.

وكانت حليمة تحسّ أثناء ذلك بتغيّر غريب يجري في أعماقها، في قلبها، في عقلها،. ولم تعد حليمة التي تعبد فتّاح. إنها تحتقره.. وإنها لتعجب كيف أحبته يوماً.. كيف فكرت به زوجاً لها.. وإن الحقيقة البشعة لتتكشف لها الآن كبالوعة نتنة. إنه لم يكن حباً. لقد كان خدعة وضيعة..

تسمّرت حليمة في موضعها وصور حياتها مع فتّاح تنثال على مخيلتها. كانت كمن يرى الدنيا للمرة الأولى حينما خرجت إلى لقائه في الموعد الأول. ومع أنها كانت تتخيل شبح عمر في كل شخص قادم من بعيد، لكنها لم تفكر في التراجع. وسارت مع فتّاح في تلك الشوارع الساكنة الهادئة. وكانا كلما وقعت أنظارهما على شخص قادم ابتعد أحدهما عن الآخر. ولم يسعها أن تتكلم كثيراً في ذلك اللقاء. كان قلبها يخفق في قوّة، وكانت رعشة خفيفة تنتظم جسدها. ولم يسأل فتّاح سوى أسئلة عابرة، وصرفا معظم الوقت صامتين. لكنه كان صمتاً يعوّض عن مئات الكلمات. ولدى عودتها وقت الغروب أعملت فكرها طوال الطريق لتخترع عذراً تبرر به غيبتها عن الدار.

وترقبت بلهفة موعدهما التالي. وكانت تتحرّق للتمشّي مع فتّاح في شوارع "الوزيرية" الصامتة. وكانت في أغلب الليالي ترى حلماً واحداً لا يتغيّر هو تجوّلها مع فتّاح في شوارع "الوزيرية". ولمّا التقى بها فتّاح حدثها طويلاً عن أسرار المهنة، وكيف يغشّ أحياناً في الوزن دون أن يشعر الزبائن. وضحكا كثيراً على بعض الخدع التي كانت تنطلي على المشترين. وأكّد لها أنه لم يفكر يوماً أن يغشّها، وأنها كانت زبونته المفضلة. وجلسا في حديقة صغيرة في "الوزيرية" على إحدى المصاطب جنباً إلى جنب. وكانت تتخيّل طوال الوقت انها تحلم حلمها اليومي وأن وجودها مع فتّاح أمر غير حقيقي. وقد امتدت يده واشتبكت بيدها. لكنها سحبت يدها بسرعة فلم يمانع. وكم أسفت على ذلك. ثم دأبا على اللقاء في تلك الحديقة الصغيرة المنعزلة. واعتادت أن تمضي إلى مواعيدها خاوية المعدة. فهي تقضي يوم الموعد في فرح طاغٍ يفقدها شهيتها للطعام، فلا تصيب في الغداء سوى الشيء القليل. فكانت تشعر دائما بالإعياء وهي تمشي بجوار فتّاح. وفي ذلك اليوم انتابها إعياء شديد وهي تجلس بجواره وتصغي إلى أحاديثه الساحرة. واشتدّ اعياؤها حينما التفت إليها فجأة وطوّقها بين ذراعيه وأهوى على ثغرها بقبلة طويلة. حاولت أن تتملص من ذراعيه فلم تواتها قوّتها. ارتخت أعضاء جسدها، وأصابها ما يشبه الدوار، وحلّقت بها النشوة في سماوات سحرية. وصارت تلك القبلة اللذيذة فاتحة لقبلات طويلة.

وكان ثمة مرارة لاذعة تزداد ترسباً في قلبها كلما انثالت عليها صور غرامها. وزفرت زفرة قويّة أخيراً وهتفت: "أوف ربي.. لِمَ؟ لِمَ؟"

نهضت بتثاقل وهي تحسّ بإعياء شديد، ونفضت ذرات التراب عن عباءتها. ثم التفّت بها وسارت صوب الجسر. وقطعت الشارع المؤدي إلى الجسر بخطوات بطيئة، ولمّا بلغت الجسر توقفت عن السير. كان السكون من حولها عميقاً، والنهر ينساب بهدوء إلى مقرّه الأبدي. أسندت ذراعيها على حاجز الجسر. وتأملت المياه المنسابة من تحتها وقد انعكست عليها أضواء المصابيح المرتجفة. ثم حوّلت عينيها إلى قبّة السماء الصافية الزرقة بنجومها المتزاحمة التي تخطف البصر. وبدا لها الكون رهيباً يخفي وراءه عالماً حافلاً بالأسرار. وارتعد جسدها، ودار رأسها، واشتدّ إعياؤها. وكان الطنين يملأ أذنيها. نقّلت أنظارها بين الأضواء الخافتة المنبثقة من أعمدة الكهرباء على جانبي النهر. وتأملت أشجار النخيل الشامخة المتلفعة بالصمت. ثم خيّل إليها فجأة أن الكون يخلع عنه لباسه العابس فتتكشف وراءه حياة مشرقة. هناك وراء تلك النجوم الملتمعة، وفي أعماق تلك البقعة الزرقاء العظيمة يحيا الناس حياة هانئة مجرّدة من القسوة والخداع. وتخيّلت نفسها تحلّق بجناحين عظيمين نحو النجوم وتتوغل بينها.

وفزّت من خيالاتها على غناء ينبعث من الأكواخ القريبة يمزّق السكون في حزن: "يُمّه.. يا يُمّه.. جبتيني للضيم". وطفحت عيناها بالدمع.

الصديقان

تساءلت أمي وهي تملأ صحناً بالرزّ وتتوجّه بقطعة لحم كبيرة: من يأخذ هذا الصحن إلى بيت أم حسين؟

وكنت أترقب بلهفة انتهاءها من تقسيم فخذ اللحم على صحون الجيران لكي يأتي دورنا، وكانت شهيتي للطعام قد بلغت ذروتها. لكن سؤالها أنساني لهفتي وهتفت في الحال: أنا آخذ الصحن.

فحسين ابن أم حسين أعزّ أصدقائي، وإهداء مثل ذلك الصحن إليهم يملؤني فخراً. حملت الصحن بفخر وانطلقت إلى بيت أم حسين. كانوا يقيمون في كوخ صغير في البستان المهجور في نهاية الزقاق. ولم أكن أخشى دخول ذلك البستان ليلاً فليس فيه كلاب. صحت بأعلى صوتي وأنا أقف تجاه الباب: حسين. حسين.

كانت الستارة الزرقاء الحائلة اللون مسدلة على باب الكوخ، ونور "النفطية" الخافت ينبعث من ورائها. وتناهى إليّ صوت أم حسين الأجشّ متسائلة: من يريده؟

فقلت: أنا عدنان خالة.

فأزيحت الستارة وظهرت أم حسين بجسمها الضخم ووجهها الغليظ الغامق السمرة. تناولت مني صحن الرز وقالت: الله يزيد النعمة.

مددت رأسي داخل الكوخ فرأيت حسين منبطحاً على الحصيرة وقد توسد ذراعيه. وكان أبو حسين يتربع على الأرض قرب الباب في

خمول. لكنه انتصب في جلسته حينما رأى صحن الرز ونظر إلى أم حسين متحفزاً. واستدرت لأعود فقالت أم حسين: قف قليلاً يا ولدي لأفرّغ لك الصحن.

فتوقفت وقد فتر حماسي. كانت صورة صحني المتوّج بقطعة اللحم قد بدأت تلح على ذهني. وإذ كانت أم حسين تفتش عن صحن، هجم أبو حسين على طبق الرز واختطف قطعة اللحم ودسّها في رغيف وراح يلتهمها ككلب جائع. وكدت أصرخ حانقاً فقد بدا لي أنه سيأتي على الرغيف في لقمتين وأنه لن يبقي من اللحم شيئاً لحسين. وتعلقت عينا حسين بوجه أبيه بجزع والدموع تكاد تطفر منهما. قالت أم حسين وهي تمدّ إلى الأب يدها: لا تأكل اللحمة كلها يا محيسن.. خلّ لحسين قليلاً منها.

فأبعد أبو حسين يدها بكوعه وانهمك في التهام الرغيف. فتقدمت إليه أم حسين وأمسكت بالرغيف في يد ودفعته في صدره باليد الأخرى، فأفلت الرغيف وتقهقر حتى اصطدم بجدار الكوخ ووقع على الأرض. وفي غمضة عين مدّ يده إلى الموقد والتقط منه حجارة قذفها في وجه أم حسين، فانبثق الدم من جبهتها وتساقط على ثوبها الأسود وعلى صحن الرز. ثم مرق بجواري وتوارى في عطفة الطريق. ولعلع صوت حسين بالعويل.

تملكني خوف شديد، وجمدت لحظة في موضعي وأنا أرتعش كسعف النخلة. ثم ركضت إلى البيت وأنا أبكي بهلع. التف أبي وأمي وإخوتي

حولي وأمطروني بالأسئلة الوجلة. وردّدت أمي بجزع: اسم الله عيني. الرحمن عيني.

قلت أخيراً بصوت متقطع مبهور الأنفاس: أبو حسين أكل اللحمة وفشخ أم حسين وهرب.

ففتر حماس الجميع، وعاد إخوتي إلى طعامهم. وتساءل ابي متعجباً: وما الداعي إلى هذا الخوف والبكاء؟!

وقال فالح هازئاً: حسبنا أن السبع لاقاك في الطريق.

وانسحبت أمي إلى موضعها بجوار الموقد وقد عاودها الاطمئنان، وانهمكت في حك قدر الرز. ولبثت جامداً في مكاني أخزر الجميع في امتعاض وهم مشغولون عني وكأن أمراً فظيعاً لم يقع. ثم التفت إليّ سالم أخيراً وتساءل: لِمَ لا تتعشى؟

فقلت في غيظ: وكيف أتعشى؟ أريد أن آخذ إلى بيت أم حسين صحناً آخر.

فقالت أمي: إننا قسمنا اللحم كله يا عدنان ولم يبق منه شيء.

فتنامى امتعاضي واشتد بي الضيق والكرب. قال فالح وهو يمضغ لقمة حشا بها فمه: خذ لهم عشاءك إذا كنت مصرّاً.

وبدون تردد حملت صحني ومضيت به إلى الباب وعيون الجميع معلقة بي.

وداخلتني رهبة وأنا أدلو من باب الكوخ، وتمثل لي شبح (أبو حسين) بقامته الطويلة المنحنية ولحيته الكثة المهوشة ورأسه الحليق. وتسمّرت

بجوار الباب صامتاً لا أجسر على مناداة حسين. ثم قهرت ترددي وصحت: حسين.

أزيحت الستارة الزرقاء وبرزت أم حسين. كان رأسها معصوباً بعصابة بيضاء لاحت في جانب منه بقعة حمراء كبيرة. ناولتها صحن الرز بصمت فنظرت إليّ بامتنان وقالت: الله يخليك لأهلك بجاه العباس والحسين.

كان حسين جالساً القرفصاء على الحصيرة ورأسه يكاد يلامس ركبتيه. وكان صحن الرز الملوث بالدم بجواره لم يمسسه أحد. ولم ارَ لـ"أبو حسين" أثراً.

رجعت إلى المنزل حاملاً الصحنين الفارغين وأنا أشعر بارتياح. كنت موقناً أنني فقدت عشائي اللذيذ وخسرت قطعة اللحم، لكن الندم لم يتطرق إلى نفسي. وبدا لي الأمر سواء أتعشيت لحماً ورزاً أم رزاً وحده، أم خبزاً فقط. ودهشت حينما وجدت في موضعي المعتاد من الصينية صحناً مليئاً بالرز تناثرت فوقه قطع اللحم. وتلقاني أبي قائلاً: بارك الله فيك يا بنيّ.

ورمقني إخوتي في حنق وقال فالح: أنت تتبرع بعشائك ونحن ندفع الضريبة.

•••

التقيت بحسين صباح اليوم التالي في الزقاق فبادرني قائلاً: أمي تقول إنك أحسن أولاد المحلة.

بجوار الباب صامتاً لا أجسر على مناداة حسين. ثم قهرت ترددي وصحت: حسين.

أزيحت الستارة الزرقاء وبرزت أم حسين. كان رأسها معصوباً بعصابة بيضاء لاحت في جانب منه بقعة حمراء كبيرة. ناولتها صحن الرز بصمت فنظرت إليّ بامتنان وقالت: الله يخليك لأهلك بجاه العباس والحسين.

كان حسين جالساً القرفصاء على الحصيرة ورأسه يكاد يلامس ركبتيه. وكان صحن الرز الملوث بالدم بجواره لم يمسسه أحد. ولم ارَ لـ"أبو حسين" اثراً.

رجعت إلى المنزل حاملاً الصحنين الفارغين وأنا أشعر بارتياح. كنت موقناً أنني فقدت عشائي اللذيذ وخسرت قطعة اللحم، لكن الندم لم يتطرق إلى نفسي. وبدا لي الأمر سواء أتعشيت لحماً ورزاً أم رزاً وحده، أم خبزاً فقط. ودهشت حينما وجدت في موضعي المعتاد من الصينية صحناً مليئاً بالرز تناثرت فوقه قطع اللحم. وتلقاني أبي قائلاً: بارك الله فيك يا بنيّ.

ورمقني إخوتي في حنق وقال فالح: أنت تتبرع بعشائك ونحن ندفع الضريبة.

***

التقيت بحسين صباح اليوم التالي في الزقاق فبادرني قائلاً: أمي تقول إنك أحسن أولاد المحلة.

فملأني الزهو لهذا المديح الصادر من أم ضخمة مخيفة كأمه، وسألته: وأبوك، الم يرجع بعد؟

- لا.

- وأين قضى الليل إذن؟!

لاحت في عينيه نظرة حزينة، وهز رأسه بحيرة وقال: لا أدري.

واستولت عليّ رهبة مفاجئة. وطافت في رأسي قصص الناس الذين يهيمون في البرية وينامون مع الحيوانات المتوحشة ويأكلون من ثمار الأشجار. ورنوت إليه برثاء والدموع تكاد تطفر من عينيّ. ما أفظع أن يكون الإنسان بلا أب! من الذي سيعطيه "اليوميّة" صباح كل يوم، و"العيدية" في كل عيد؟ لكنني سرعان ما تذكرت أن "أبو حسين" لا يعطيه سوى "يوميّة" ضئيلة، وأنه قد يبقى أياماً طويلة بلا "يوميّة". وكثيراً ما تقاسمت معه ما أشتريه من عطار المحلة من "لب غراش" و"ساهون" و"ضروك الجريدي".

ظلّ حسين ساهماً وأنا لا أجسر على مخاطبته، ثم التفت إليّ وقال بأسىً: لن ألعب بعد الآن في الطريق.

فهتفت بانزعاج: ولِمَ؟

فقال: سأشتغل في دكان حمود وأبقى في السوق من الصبح إلى المغرب.

وهالني تخيّل مثل هذه الحياة. كيف يستطيع الواحد أن يبقى في الدكان طيلة النهار من دون لعب؟! وتعذر عليّ أن أفهم كيف يرضى لنفسه هذا السجن. ثم تذكرت أمه المخيفة وحمدت الله على أنها ليست

أمي. فكرت مليّاً ثم سألته: لِمَ لا تعاند أمك يا حسين وترفض الذهاب إلى السوق؟

ـ ولماذا أعاندها؟ سأقبض "يوميّة" وأتغدى من غداء صاحب الدكان.

ـ ولماذا لا تتغدى في بيتكم؟

قال وهو يتجنبني بنظراته: ليس في بيتنا غير الخبز.

وتأملت وجهه الشاحب وهو مطرق يرسم بإصبعه على الأرض المتربة خطوطاً متعرجة. وفهمت السبب الذي جعله عزوفاً عن لعبة "السباق". وكان عجزه فيها منذ أسابيع وتعبه السريع ـ وهو الذي كان أقدرنا وأسرعنا جميعاً ـ مثار عجبي وحيرتي.

نظرت إليه لائماً وقلت: لماذا لم تخبرني يا حسين؟ كنت جلبت لك من بيتنا مرقاً ورزاً كل يوم.

فقال وهو لا يزال يرسم على الأرض غير ناظر إليّ: أمي لا ترضى أن يعرف الجيران.

ولم أستمتع باللعب ذلك اليوم. كانت فكرة غياب حسين عن الزقاق طيلة اليوم تعكر عليّ صفوي. متى سنلعب معا؟! فأمّه لا تسمح له باللعب في الطريق بعد الغروب، وأبي لا يسمح لي بذلك إلاّ في أيام الأعياد. وإن فقدان صديق كحسين أمر صعب سيجعل ساعات لعبي منغصة ولا شك.

لبثنا جالسين جنباً إلى جنب بالقرب من باب دارنا والصمت يخيّم علينا. ولم نتبادل سوى كلمات قليلة.

•••

كنت موقناً أن أبويّ لا يرفضان لي طلباً إذا أصررت عليه. وكان سلاحي الأول في فرض مطالبي هو البكاء. فإذا لم يثمر أضربت عن الطعام. لكنني لم أكن أمتنع عن تناول الطعام حقيقة، بل كنت أنتهز غفلة من الجميع وأتسلل إلى موضع الخبز وأسرق رغيفاً أدسّه في جيبي وأخرج إلى الطريق لألتهمه بعيداً عن عيون إخوتي. وكان امتناعي عن الطعام كافياً لأن يفقد أمي صوابها فتجيب طلبي مهما كان. وكنت متأكداً منذ اللحظة الأولى أن طلبي الجديد غير سهل التحقيق، وأنه سيلقى معارضة شديدة وخاصة من أخوتي. فهم لا يحبون حسين كثيراً. وعزمت على استخدام أسلحتي المعتادة إذا اقتضى الأمر. قلت لأمي: أريد أن آخذ عشائي كل يوم إلى كوخ أم حسين وأتعشى هناك.

فتطلعت إليّ في عجب وتساءلت: ولماذا لا تتعشى هنا؟!

- أريد أن أتعشى مع حسين، فهو يظل بلا عشاء. أبو حسين هرب ولم يرجع.

فكرت أمي قليلاً ثم قالت: سأخبر أباك ونرى.

حان وقت العشاء وتحلقنا حول الصينية وأبي يتصدر المكان كعادته. وجلست أمي قرب الموقد تملأ لنا الصحون من قدور الطعام بجوارها. ونقّلت أنظاري بينها وبين أبي، وترقبت في لهفة أن يقول أحدهما شيئاً لكنهما لازما الصمت. فظللت جالساً على مضض وقد عقدت العزم على أن يكون البكاء الحاد أول سلاح ألجأ إليه. وقدّمت أمي صحون الطعام واحداً بعد الآخر، ثم وضعت أمامي أخيراً صحناً مليئاً بالرز وفوقه المرق واللحم. ونظر إليّ أبي باسماً وقال: قم إلى صاحبك يا عدنان.

حملت الصحن مغتبطاً وأسرعت إلى البستان وأنا أكاد أطير من الفرح. لكن حماسي فتر عندما بلغت الكوخ ومثلت في ذهني أم حسين بقامتها المديدة ونظراتها الحادة. وهتفت وأنا ألصق أذني بالستارة: حسين.

نحيت الستارة وظهرت أم حسين في الحال. ورنوت إليها متهيباً. كان وجهها الأسمر العريض ينبسط في ابتسامة وادعة. وكانت عيناها تلتمعان بالحنان. قلت لها بلهجة متعثرة: أريد أن أتعشى مع حسين يا خالة.

فقالت برقة: تفضل عيوني، محروس.

جلست أنا وحسين في زاوية من الكوخ نتناول عشاءنا بسعادة ونتهامس بما مرّ علينا من حوادث اليوم. وقصّ عليّ حسين حكايات مشوقة عمّا شاهده وجرى له في "سوق البزازين"، وادّعى أنه ساعد صاحب الدكان في البيع. وعجبت لذلك وسألته في ارتياب: كيف استطعت أن تبيع الأشياء وأنت لا تحسن العدّ إلى أكثر من مئتين يا حسين؟!

فقال محتجاً: أنا أقدر أن أعدّ إلى الألف.

وانطلق يعدّ بسرعة، ولكنه ما كاد يتجاوز المئتين حتى أخذ يخطىء في العدّ. ولم أحبّ أن أدلّه على خطئه فأفسد عليه سروره. كان يحاول أن يباريني في العدّ دائماً، ولكنه لم يفلح أبداً. وتظاهرت بتصديق ادعائه لئلاّ يؤدي العناد إلى خلاف بيننا كما يحدث أحياناً. وسألته: هل رأيت أباك في السوق؟

فقال بحزن: لا. لم اره. وذهبت إلى مسجد المحلة لعله نام هناك فلم أجده.

وسكت لحظة وقد غام وجهه ثم أضاف: كيف سأبقى بدون أب؟!

وأثار هذا الأمر في نفسي حزناً شديداً. وتخيلت أباه في البرية مع الحيوانات الوحشية. وكانت أم حسين منزوية طيلة الوقت في ركن من الكوخ وهي سارحة النظرات كئيبة الوجه. وكفّ حسين عن الأكل ولم ينته نصف الصحن بعد، فكففت أنا أيضاً مع أنني لم اشبع تماماً. ثم انصرفت إلى البيت تاركاً الصحن لآخذه في اليوم التالي.

•••

في كل مساء كنت أحمل عشائي إلى كوخ أم حسين. وكانت أم حسين تنزوي كل ليلة في ركنها المعهود وهي ساهمة مشغولة الفكر. وكنا نلعب أنا وحسين بعد العشاء وقتاً طويلاً وهي جامدة في جلستها وكأنها لا تشعر بوجودنا. ولم يعد منظرها الضخم يخيفني، بل إنني بدأت أحبها، وأخذت تبدو لي رقيقة حنوناً كأمي. أما حسين فلم يعد ولوعاً باللعب كعهده القديم، وصار يفضل الجلوس صامتاً. ولعله كان يجبر نفسه على اللعب مجاملة لي. وغدا جوّ الكوخ كئيباً يقبض النفس.

وكنّا قد فرغنا ذات مساء من عشائنا وبدأنا نلعب "جلكة" أنا وحسين. وارتعشت ستارة الكوخ فجأة فنظرنا إليها باستغراب. كان سعف النخيل ساكناً ولم يكن ثمة أثر للنسيم. ومرت دقائق ثم ارتعشت الستارة ثانية وتخايل شبح إنسان وراءها. ونهضت أم حسين وتطلعت خارج الكوخ فلم

تر أحداً، فعادت إلى موضعها. تبادلنا أنا وحسين نظرات قلق، وهمس حسين بصوت نمّ عن قلقه: كيف تتحرك الستارة من نفسها؟

فقلت محاولاً الظهور بمظهر اللامبالي: ربما لم تتحرك حقيقة فأمك لم تر أحداً.

فقال وهو يرمق الستارة بنظرات وجلة: لعلّ الجنيّ حرّكها، فلا يمكن أن تراه أمي. هذا البستان مسكون بالجن يا عدنان.

وأقلقتني هذه الفكرة وأثارت المخاوف في قلبي. وتذكرت أنني رأيت مرة وأنا ماض إلى الكوخ ليلاً معزى ترعى وحدها في البستان، فلا شك أنها كانت جنيّة، وأيقنت أن مجيئي إلى الكوخ ليلاً لم يعد سهلاً. ظلت عيوننا مسمّرة على الستارة والخوف يملأ قلبينا. ثم قلت بدون وعي وعيناي لا تفارقان الستارة: أخي فالح يقول إن الجن لا وجود لهم.

ومرة ثالثة ارتعشت ستارة الكوخ، ثم أطلّ منها رأس إنسان ذو لحية كثّة. وكادت صيحة رعب تفلت من شفتي، لكن حسين هتف بفرح: هذا أبي.

فاضاء وجه أم حسين وهمّت بالنهوض، لكنها عادت فعبست وأدارت رأسها إلى الناحية الأخرى. وكان رأس "أبو حسين" قد ازداد امتداداً في الكوخ، وظهر الجزء الأعلى من جسده. وكانت ابتسامة حائرة تتعلق بشفتيه. وألقى فجاة بحمل ذبيح أمام أم حسين كان يخبئه وراءه. ونظرت أم حسين إلى الحمل من زاويتيّ عينيها ولم تتحرك. ودخل أبو حسين بقامته العجفاء ووقف بجوار الباب وابتسامته الحائرة تتسع على شفتيه. ثم مدّ يده في جيبه وأخرج صرّة ألقاها في حضن أم حسين، فرنّ

صوت النقود. وسمّرت أم حسين عينيها على صرّة النقود وقد تبدّى السرور في وجهها، لكنها لم تتحرك. تقدم أبو حسين داخل الكوخ بتردد ثم جلس القرفصاء في الجانب المقابل لها وهو ينقّل نظراته الفرحة بينها وبين حسين. وهيمن صمت ثقيل على الكوخ تتوتر منه الأعصاب. وقال أبو حسين أخيراً: أنا لقيت شغل يا حسنة.

فالتفت إليّ حسين وقد شعت عيناه بالسرور وهتف بفرح: سنلعب غداً طول النهار يا عدنان.

المعلِّم محيي

ظلّ قلبه مثقلاً بالهمّ. ولم يخفّف اقتراب موعد انتهاء الدرس الأخير من همّه بالرغم من أن اليوم هو الخميس وغداً تحل عطلة نهاية الأسبوع. وكان قد فرغ من القاء الدرس قبل ربع ساعة من الموعد المقرر فانصرف يقطع فسحة الصف جيئة وذهاباً. ولديه اليوم أكثر من سبب للإحساس بطول الوقت. فقرار مجلس المدرسين بفصل خمسة طلاب قد كهرب جوّ المدرسة. والانسجام بينه وبين الطلاب مفقود في الأيام الاعتيادية. فما بالك في مثل هذا اليوم؟ وبعد، فما الذي يدعوه إلى استعجال الوقت؟! ما دام لم يحصل على المبلغ فلا شك أن أنيسة ستفسد عليه عطلة نهاية الأسبوع، وستقضي الجمعة في جوّ كئيب، وسيأتي يوم السبت سريعاً وتأتي معه المتاعب من جديد.

- أستاذ.

انتبه الأستاذ محيي من أفكاره، وتوقف عن سيره السريع، وأدار عينيه في وجوه الطلاب المدلهمة. كان صمت كئيب يدثر الجميع، وكان يدرك جيداً معنى هذا الصمت. وطوال الوقت توقع أن يكون هذا الصمت هو السكون الذي يسبق العاصفة.

- أستاذ.

والتقت عيناه بعينيّ فاضل، وقرأ فيهما تحدياً ممزوجاً بالاحتقار، فقال بلهجة سريعة حاسمة: نعم؟ ماذا تريد؟

قال فاضل في خشونة: أريد أن أسأل سؤالاً..

تجاهل الأستاذ محيي لهجة فاضل المتحدية وقال وهو ينظر في ساعة يده: لا وقت الآن للأسئلة. لم يبق من الدرس سوى دقائق قليلة، أجّل سؤالك إلى الدرس المقبل.

قال فاضل بإصرار: يوجد وقت كاف للجواب على سؤالي.

وكان الأستاذ محيي قد تجنب حتى الساعة أية مشكلة في هذا الصف أو غيره. وكان الطلاب جميعاً قد رفضوا الاشتراك في الدرس. قال باستسلام: ما هذا السؤال الهام؟

سأل فاضل: هل كانت محكمة الشعب ضرورية لصيانة مبادىء الثورة الفرنسية؟

فقال الأستاذ محيي بخشونة: وما الداعي إلى مثل هذا السؤال؟ إننا انتهينا من بحث هذا الموضوع من وقت طويل، وقد بينت لكم في حينه أنها كانت ضرورية لصيانة البلاد من الأفراد الذين لجأوا إلى التعاون مع الدول الأجنبية للقضاء على الثورة.

تساءل فاضل في تهكم: ألا تحتاج البلاد الآن لمثل هذه المحكمة لمحاكمة الخونة الموجودين في كل مكان، حتى في المدارس، والذين يتعاونون مع الدول الاستعمارية؟

اندفعت الدماء إلى وجه الأستاذ محيي وهو يلاحظ بسمات الاحتقار على شفاه التلاميذ. وقال محاولاً تجاهل مغزى السؤال: وما الداعي إلى هذا السؤال الآن؟! هل البلاد في حالة حرب؟! ثم ما علاقة الثورة الفرنسية بالبلاد؟!

فقال فاضل في تحدٍّ: وما فائدة التاريخ إذا لم تستق منه العبر بالمقارنات؟ أنت نفسك قلت هذا مراراً عديدة.

وفي تلك اللحظة رنّ الجرس رنيناً حاداً متصلاً فخفق له قلب الأستاذ محيي، وجمع أوراقه وكتبه سريعاً وغادر الصف. وسمع أحد الطلاب وهو يهتف: لا بد لكم من يوم تحاكمون فيه أيها الخونة.

وما أن دخل غرفة المدرسين وطالعته وجوه زملائه حتى عاد إليه انقباضه. لقد سأل أغلبهم إقراضه المبلغ فاعتذروا جميعاً. ولا يمكنه أن يلوم أحداً منهم، فمن يتخلى عن ستة دنانير في أواخر الشهر؟! انصرف المدرسون واحداً بعد الآخر ولم يبق سوى الأستاذ خليل. كان حائراً لا يدري ماذا يفعل. وأورثته فكرة عودته إلى البيت بدون المبلغ همّاً حاداً. تشاغل بتقليب دفاتر الامتحانات، لكن الضيق كتم أنفاسه. وتملكته فجأة كراهية جامحة لكل ما حوله؛ للبيت، للمدرسة، للمدرسين، للطلاب، لدفاتر الامتحانات، وودّ لو يهرب إلى مكان ناء لا يرى فيه أحداً.

انكب الأستاذ خليل على دفاتر الامتحانات يعمل فيها قلمه الأحمر. وأحسّ الأستاذ محيي وهو يختلس النظرات إلى وجهه الغليظ القسمات أنه يكرهه أكثر من أي وقت مضى. وقد كرهه هذا الصباح كراهية شديدة أثناء اجتماع مجلس المدرسين حينما تجادل معه حول فصل الطلاب. ما الذي يدعوه إلى الاعتقاد أنه أفضل من غيره من المدرسين؟ إنه لا يريد أن يعترف بأنه موظف مسؤول، وأن عليه إطاعة الحكومة مهما تكن أوامرها. وحينما عرض على المجلس أمر فصل الطلاب الخمسة لاشتراكهم في مظاهرة وطنية أصر على معارضة القرار،

ورفض المصادقة عليه بالرغم من علمه بأن معارضته قد تؤدي إلى فصله من الوظيفة. فما معنى هذا التحدي للسلطة وهذه الثقة الزائدة عن الحدّ في النفس؟ـ وبعد فهو يعلم جيداً أن ذلك القرار قد صدر من "المخابرات" وأنه لا بد أن ينفذ، أرضي المدرسون أم لم يرضوا.

تأمل الأستاذ محيي وجه الأستاذ خليل فأثاره الهدوء المرتسم عليه. هنيئاً له، إنه غير مسؤول عن إعالة زوجة. أما هو..

وألحت عليه ثانية فكرة ضياع عطلة نهاية الأسبوع، وتذكر أن أنيسة سترفض بلا شك الذهاب إلى السينما كعادتها في أمسية كل خميس. وماذا سيفعل؟ ماذا سيفعل؟

نهض في انفعال وقد افترسه ضيق لا يقاوم. وجمع كتبه ودفاتره وهمّ بالانصراف. وألقى نظرة أخيرة على الأستاذ خليل فقفزت إلى ذهنه خاطرة.. "لماذا لا أسأله إقراضي المبلغ؟" وابتسم في سخرية.. "لا بد أنني جننت لأفكر بهذا الشيء". ومع ذلك ظل واقفاً. وتنحنح مراراً عديدة والعبارات تتقلب على لسانه، ثم قال أخيراً بصوت متقطع: اسمح لي يا أستاذ خليل أن أسالك.. أن أطلب منك.. أن تقرضني ستة دنانير.

رفع الأستاذ خليل رأسه، ونظر إليه لحظة، ثم انتزع من جيبه الداخلي محفظة نقوده وناوله المبلغ في صمت.

راقب الأستاذ محيي حركاته البطيئة في ذهول ممزوج بالفرح، وتناول المبلغ وهو خافق القلب، وكان الدم قد صعد إلى وجنتيه فأحسّ بهما تلتهبان. قال بصوت مضطرب وعلى وجهه تعبير كاسف: زوجتي

مريضة، وهي في حاجة إلى أدوية. وأنت تعلم حاجة المتزوجين في آخر الشهر. هنيئاً لكم أيها العزاب. شكراً جزيلاً. شكراً.

قال الأستاذ خليل باقتضاب وهو ينكب على دفاتره: العفو.

ووضع الأستاذ محيي المبلغ في جيبه وتلفت حواليه حائراً لا يدري كيف يتصرف. ثم عاد يقول بصوته المضطرب وتعبيره الكاسف: يجب أن أمرّ الآن على الصيدلية وأشتري الأدوية اللازمة. لا أدري كيف أشكرك يا أستاذ خليل.

قال الأستاذ خليل دون أن يرفع أنظاره عن دفاتره: العفو. هذا واجب.

ظلّ الأستاذ محيي واقفاً يتلفت حواليه في ارتباك ثم حمل حقيبته وقال وهو يفارق الغرفة: في أمان الله يا أستاذ خليل. أشكرك مرة ثانية.

- العفو، مع السلامة.

•••

كان طعام الغداء مهيأً على المائدة وأنيسة في انتظاره في غرفة الطعام. بادرته متسائلة: لماذا تأخرت؟

أجاب الأستاذ محيي: كانت "الباصات" مزدحمة، ولم يكن في الإمكان الحصول على أي مكان فيها، حتى ولا موضع قدم. اليوم يخرج موظفو الدوائر في وقت انصراف المدارس كما تعلمين فهو يوم الخميس.

وجلس قبالتها وهو طلق الوجه. أقبلت الخادمة بالطعام فتشممه في شهية. وما أن تناول الملعقة الأولى حتى تساءلت أنيسة: هل أحضرت معك النقود؟

فرماها بنظرة سريعة وقد افترت شفتاه عن بسمة ماكرة، وقال: يا عزيزتي، كيف تتوقعين أن أعثر على مدرّس يملك مثل هذا المبلغ في أواخر الشهر؟!

تساءلت أنيسة وهي عابسة الوجه: لم تحضر النقود إذن؟!

قال وابتسامته الماكرة تزداد اتساعاً: مع الأسف.

فاشتدّ اكفهرار وجهها وأخذت تلوك طعامها ببطء. غمغمت أخيراً وهي تحدّق في صحن طعامها: اليوم هو آخر أيام التنزيلات في "أورزدياك".

فقال الأستاذ محيي: لا أدري ما الذي يحزنك يا أنس. أيهمك شراء تلك البدلة إلى هذا الحد؟! أنت تعلمين أنني أعمل المستحيل لإسعادك.

رفعت رأسها ببطء وتأملته بنظرة متعالية وقالت بتهكم: أنت تعمل المستحيل لإسعادي! وماذا باستطاعتك أن تعمل لإسعادي؟! ماذا باستطاعتك؟! أنت عاجز عن شراء بدلة بسيطة لي.

وراعه الاحتقار الذي ارتسم على وجهها، وآلمه تهكمها، فلم يقل شيئا. وعادت أنيسة تلوك الطعام ببطء وتحدق في صحن طعامها وتتحدث بلهجتها المتعالية: ما أسخفني! لست أدري ما الذي حملني على الزواج من معلم بائس! إنني خطبت مراراً عديدة. وخطبني أشخاص أثرياء. فلماذا رضيت بك من دونهم، لماذا؟! لو رضيت بالمهندس الذي خطبني قبلك بشهرين لكنت الآن أعيش في قصر عظيم، ولكانت هناك سيارة فاخرة تحت قدميّ، ولكانت خزانتي مليئة بالملابس. ولماذا رفضته، لماذا؟! لست أدري. إنه حظي التعس.

صمتت ووجهها الجميل يكفهرّ. كانت خصلات من شعرها الفاحم قد تدلّت على جبينها فزادت وجهها جمالاً. وعادت تقول بلهجتها المتعالية وهي ترسل نظراتها الغاضبة عبر النافذة: إنني سئمت هذه الحياة السخيفة. سئمت العيش في هذا البيت. كلما أردت شراء حاجة طال الأخذ والرد حولها.

ونهضت فجأة وهي ملتوية الشفتين. ولما بلغت باب الغرفة التفتت وراءها وتأملته بنظراتها المتعالية، ثم قالت في مرارة: ما أشدّ حماقتي حين رضيت بالزواج من معلم!

وخرجت تسير متباطئة. لبث الأستاذ محيي مسمّراً في مقعده كالمصعوق. ثم رفع ملعقة الطعام إلى فمه وحاول أن يبتلع اللقمة فهاجمه نفور شديد. ومكث يحدق في الطعام طويلاً وقد تشابكت في رأسه الخواطر. ثم أخذ يستعيد وعيه، وزال ذهوله وحلّ محله شعور بألم عميق ممزوج بالحنق.

غادر غرفة الطعام، ومرّ في طريقه على غرفة النوم، فرمق الباب بنظرات شزراء. إنه لن يصالح أنيسة هذه المرة مهما طال زعلها، لن يصالحها أبداً. وإذا شاءت فلتترك البيت وتذهب إلى أسرتها. ولن يرجع عن هذا القرار.

استخرج من مكتبه بعض دفاتر الامتحانات وحاول الانشغال في تصليحها. لتراقصت الحروف أمام عينيه، وتراقصت صورة أنيسة بيلها... لا يحسن سوى الكلام! هو الذي عاهد نفسه على بذل روحه في سبيلها منذ وطئت قدماها بيته. هو الذي يحاول تلبية طلباتها مهما تتعذر.

ولم يفكر يوماً في تحقيق رغباته، لكي يجيب طلباتها هي. كل شيء بات كمالياً بالنسبة إليه. وقد أصبحت ملابسه غير لائقة بمدرّس محترم في مدرسة ثانوية. إنه لم يشتر بدلة جديدة منذ تزوجها. حتى الكذب تعلمه من أجلها! وقد كذب قبل ساعات على الأستاذ خليل ليستدين لها المال. وماذا كانت حصيلته بعد كل هذا؟ لا شيء سوى التذمر من الحاجة إلى النقود كأنه مسؤول عن قلّة رواتب المعلمين. ولم تفكر يوماً في إظهار حبها له، في معاملته برقة، في إسعاده بكلمة لطيفة. هو الذي أحبها من أعماق قلبه. هو الذي أمّل نفسه سنين طويلة بالسعادة معها.

وانثالت الصور والذكريات على ذهن الأستاذ محيي وأثارت في قلبه مزيجاً من مشاعر الشوق والحنين والكآبة. كان يجلس ساعات طويلة في المقهى الواقعة على رأس الدرب ليراها حينما تخرج من المنزل أو تعود إليه. وكان في أحيان كثيرة ينتظر بجوار منزله القريب من دارها ساعات كي تكتحل عيناه برؤيتها. كان مشغوفاً بها منذ كانت إمارات الطفولة تبدو في ملامحها وفي حركاتها، حتى اكتملت أنوثتها وأصبحت شابة يانعة. وكم حلم بذلك اليوم الذي تكون فيه رفيقة حياته، وكم صبر في سبيل تحقيق ذلك الحلم. لقد قضى أعوام الدراسة في الكلية من دون أن يفكر يوماً في الاقتراب من إحدى زميلاته، لم يفكر يوماً في تملّي جمال امرأة، فقد كانت تبدو له أجمل امرأة في الوجود. كانت صورتها مطبوعة على شغاف قلبه، لم يكن ثمة متسع لامرأة أخرى. وطوى حبه بين حنايا ضلوعه طيلة تلك الأعوام لئلا يزعج أسرتها المحافظة. لم يكن يحدّث به أي إنسان، حتى أقرب أصدقائه إليه. كان سرّه شيئاً ملذاً لم

يشاركه بالاستمتاع بمعرفته أحد. كان يهمس به لنفسه فقط. ولقد صمم على الزواج منها حالما يتخرج من الكلية، وقد فعل!

انبسطت أسارير الأستاذ محيي، وارتسمت على شفتيه بسمة سعيدة وهو يتذكر اليوم الذي احتوى فيه بيته أنيسة. كان ذلك أسعد يوم في حياته. لقد بلغ قمة السعادة. كان يمدّ يده تلك الليلة بين لحظة وأخرى يتحسس جسدها برفق ليتأكد أنها موجودة حقيقة وأنه ليس بحالم. وكانت تبدو متعبة تلك الليلة فغفت حالما وضعت رأسها على الوسادة، ولكن عينيه لم يغمض لهما جفن حتى الصباح. كان مستعداً أن يتنازل عن حياته تلك الليلة، فقد كان يبدو له أنه قد حقق السعادة القصوى، ولم يعد ثمة معنى لاستمراره في الحياة.

عادت صورة أنيسة الغاضبة ونظراتها المتعالية تلح عليه من جديد. رمى الدفتر المفتوح بين يديه على المقعد، ونهض في حنق يذرع الغرفة. لقد حاول منذ اليوم الذي وطئت فيه قدماها بيته أن يجيب طلباتها مهما كلّفه الأمر. لقد أقسم بينه وبين نفسه أن يكون رهن إشارتها. ولم يكن الراتب الذي يتقاضاه كافياً لحياة رفيهة. وكانت تعلم هذا جيداً، لكن طلباتها تجاوزت حدود إمكانياته. فراح يجري وراء المحاضرات الخصوصية ويصل عمل الليل بالنهار إرضاء لها. وكان يضطر إلى تملّق مدراء المدارس ليجودوا عليه بالمحاضرات الإضافية. كل ذلك من أجلها. من أجلها هي، ثم تتهمه بأنه لا يحسن سوى الكلام! كان عليه ألاّ يقع في الحب، ألاّ يورّط نفسه في الزواج من امرأة جميلة، فجميع الناس يعلمون أن النساء الجميلات أنانيات مغرورات.

وترامى على المقعد والثورة تتأجج بين ضلوعه.. "معلم بائس!" كما لو أنه ارتكب جريمة بكونه معلماً ذا دخل محدود! كانت تعلم أنه معلم حينما رضيت بالزواج منه، فلِمَ تفخر أمامه دائماً بأن أشخاصاً أثرياء قد تقدموا لخطبتها؟! لماذا تحاول دائماً إيلام شعوره؟! وقد أصبح شخصاً آخر منذ تزوجها. كان جريئاً حرّ الرأي معتزاً بكرامته. فأي شخص هو الآن؟ إنه شخص جبان ميت متبلّد الشعور. كل ما يشغل باله أن يهيء لها ما تريد، أن يحقق لها حياة مريحة. وهو خائف طوال الوقت لئلا يحدث شيء ما يفقده عمله. لذلك انبرى يحاول بكل الطرق كسب ودّ المدير ليرفع عنه تقارير جيدة.. وإرضاء المفتش بصنوف الاحترام ليمتدحه في تقاريره الخاصة. وأضحى أول المؤيدين من زملائه المدرسين لفصل الطلبة الذين ترد عنهم تقارير من دوائر "المخابرات" ليظفر بثقة الجهات الرسمية. وماذا سيفعل لو فصل؟ ماذا سيعمل مدرس تأريخ مثله؟! إن الحكومة تحارب المفصولين بكل طريقة وتسدّ عليهم سبل العيش. فكيف يوفر حياة رضيّة لأنيسة؟! وإنه ليعلم جيداً أن هذا السلوك يخالف ضميره، يتنافى وأبسط قواعد الثقافة والإنسانية. وإنه ليعلم أن هذا السلوك قد أفقده احترام زملائه الأحرار، وأكسبه احتقار الطلاب وكراهيتهم، وأنهم قد أخذوا يلقبونه فيما بينهم "بالجاسوس"؟. وإنه ليكره نفسه ويحتقرها، وإن ضميره ليؤنبه كلما خلا إلى نفسه. ولِمَ كل ذلك، لِمَ؟!

وتمنى الأستاذ محيي من أعماق قلبه لو أنه لم ير أنيسة ولم يحببها، لو أنه تخلص من هذا الموقف بشكل ما. سيبقى طيلة حياته يجري من

مدرسة إلى أخرى ليلقي المحاضرات الخصوصية في البرد، في المطـر، في الحرّ. ثم يعود إلى البيت لينكب على تصليح دفاتر الامتحانات وتحضير الدروس. وسيظلّ طيلة حياته خائفاً وجلاً يترقب حدوث شيء ما يكسبه غضب الحكومة ويفقده عمله. وعليه أن يتملّق مدير المدرسة، ويتمسح بالمفتشين، ويعادي النشاط الوطني بين الطلاب. وستواصل أنيسة الشكوى من قلّة المال والفخر بخطّابها الأثرياء.

وانتاب الأستاذ محيي رثاء عميق لنفسه، للتلاميذ، لزملائه المعلمين. وخيّل إليه أن باستطاعته أن يكسر قيوده ويذهب إلى زوجته الآن ويصرخ في وجهها بكل حزم "إما أن تكوني زوجة حقيقية تشاركينني السرّاء والضرّاء أو أن تذهبي إلى بيت أهلك في الحال". وسيصبح بعد ذلك حراً طليقاً لا يخشى الحكومة ولا يهاب أحداً. لا يتملق مدراء المدارس ليعطوه محاضرات خصوصية. لا يداهن مدير المدرسة ليرفع عنه تقارير حسنة. لا يوافق على فصل الطلاب الوطنيين. ولن يهتم للحكومة إن فصلته من وظيفته أم لم تفصله، وسيستطيع أن يشتغل بأي عمل كان، وبأي أجر كان.

والتهبت في شرايينه حماسة متدفقة، وانبسطت أساريره وانقشعت عنه همومه. إنه لن يرضى بحياة الخنوع بعد الآن، وسيبدأ منذ اللحظة حياة جديدة حرّة طليقة.

نهض الأستاذ محيي في عزم وانطلق إلى غرفة النوم. ووقف بجوار الباب لحظات يتسمع فلم يأته صوت، فنقر الباب ودفعه برفق. كانت أنيسة متمددة على الفراش وقد أسندت حنكها إلى الوسادة وأمامها كتاب

مفتوح. وكان شعرها الأسود الفاحم قد تناثر على الوسادة ليبرز وجهها الناصع من بين خصلاته كنجمة خاطفة الضوء. تأمّل الأستاذ محيي جسدها البضّ وقد بدا رائع التنسيق في الرداء الأحمر الضيق الذي يلفّه، وخيّل إليه أنه قادر على عمل المستحيل ليحقق لها السعادة. اقترب منها بخطوات متلكئة وتساءل: ماذا تقرئين يا أنَس؟

أجابت بلهجة جامدة دون أن تحوّل عينيها عن الكتاب: "الوسادة الخالية".

وبقي الأستاذ محيي واقفاً دقائق وهو يتأملها بنظرات مشغوفة، ثم تساءل بتردد: ألا زلت متأثرة يا أنَس؟

قالت بلهجتها الجامدة من دون أن تنظر إليه: البركة فيك.

فاقترب من السرير حتى حاذاه، ثم جلس على طرفه. ومسح بيده على ظهرها برفق وقال: لا تنزعجي يا أنَس فإني أحضرت لك المبلغ. لم يكن ما قلت سوى مزاح.. مزاح لا أكثر ولا أقل.

آمنة

كنت أرى آمنة أغلب الأمسيات. كانت تتسلل من "المقهى السويسري" وجلة، خجلة، تتقدم رفيقتها العرجاء. وآمنة جميلة جداً. فعيناها الشهلاوان الواسعتان تفيضان رقة وعذوبة. ووجهها النحيل، الناصع، الدقيق الملامح، يجتذب القلوب بوداعته وكآبته. وثمة سحر خاص في نحولها المفرط.

كان مرآها يثير ألمي. فهي واحدة من مئات النساء اللواتي يأتين من الريف إلى بغداد فتنتهي حياتهن نهايه تعسة. وذلك كان مبعث إشفاقي على آمنة كلما لاحت أمام عيني بوجهها الفاتن. وبدت هي نفسها كأنها تحسّ بهذا المصير البشع الذي يلاحقها، تترقب افتراسه بين ساعة وأخرى. فعضلات وجهها المحبوب متقلّصة أبداً، تعبر عن الضراعة والاستسلام. وعيناها الجميلتان تضطربان في محجريهما بفزع كأنهما تتوقعان هجوم عدوّ بين لحظة وأخرى. وأصابع يدها اليمنى تشدّ على طرفي عباءتها في تشنج، بينما تمتد يدها الأخرى المنبسطة إلى الناس في حياء قاهر.

لم أكن أراها إلاّ في ذلك المقهى. وفي تلك الأيام كنت مواظباً على الحضور إلى "المقهى السويسري". وكنا ثلّة من الأصدقاء نجلس معاً دائماً، ونتناقش في السياسة دائماً، ولسب الحكومة المستبدة، ونراقب النساء المتأنقات اللواتي يزدحم بهن رصيف شارع الرشيد كل مساء. ثم

حدث شيء لم يكن متوقعاً. تزوجت. وهجرت "المقهى السويسري" فلم أعد أرى آمنة. وحدثت زوجتي عن حياتي. حدثتها عن المقهى السويسرية، عن أصدقائي، عن آمنة. فأثار حديث آمنة رثاءها. وحينما عجزنا عن العثور على خادم، اقترحت عليّ أن أعرض علىآمنة العمل في دارنا. وهكذا دخلت آمنة بيتنا. كنت واثقاً أن زوجتي ستولع بها حالما تراها. فهي رقيقة، كئيبة، وجلة، تثير في القلب أنبل العواطف. وذلك ما حدث. فقد حضرت زوجتي إلى المخدع بعد مجيئها بدقائق ووجهها يفيض بالحزن. وراحت تبحث في صيوان ملابسها وهي تتمتم: آخ ربي، ما أشد بؤسها! ما أشد نحافتها! لا شيء يستر جسدها سوى خرق!

فقلت ساخراً: أفكنت تحسبين إذن أن جميع الفتيات يملكن عشرات الفساتين والبدلات مثلك يا سميرة؟ الناس يكافحون ببطولة ليشبعوا بطونهم.

فقالت: أرجوك يا سامح. لا تتحدث بهذه اللهجة. ربما عاقبتك الحكومة يوماً بسببها.

ثم أضافت: سأختار لها بعض قمصاني.

كنت أتوقع أن تحسّ آمنة بيننا بالارتياح وأن تفارقها هيئتها الحزينة. لكنها ظلت نفس الفتاة المرتاعة، الوجلة، التي تبدو أنها ستنفجر باكية في أية لحظة! بل إنها ازدادت انطواء على نفسها بمرور الأيام. لم نكن نتوقع هذا. وبدت مقتنعة أن حياتها يجب أن تبقى بمعزل عن حياتنا. ولم يعجبني هذا السلوك. لم يعجب زوجتي. تلك ليست صورة الحياة التي رسمناها لها. كنا نريد أن تشعر أنها تعيش في بيتها.. بين أهلها. لكنها

كانت تمضي ساعات النهار الطويلة صامتة، واجمة، لا تنبس بكلمة. كنا لا نكاد نسمع صوتها، لا نكاد نحسّ بحركتها. وأدهشت زوجتي بصدودها الغريب. كانت تنكمش على نفسها كلما دخلت زوجتي المطبخ. ولن ينبسط وجهها مهما رقّت معها في الحديث. وإذا طال مكوث زوجتي اجتهدت في إنهاء عملها بسرعة لتفرّ من وجهها إلى غرفتها الخاصة. وبذلت زوجتي محاولات عنيدة لكسب صداقتها. حدثتها عن نفسها، عن أسرتها، عن صديقاتها، لكن تلك الأحاديث لم تخرجها عن صمتها. ألحت عليها أن تجلس معنا في حديقة المنزل. لكنها لم تكن تحل لنفسها الجلوس إلاّ في المطبخ وفي غرفتها الخاصة. دعتها للخروج للنزهة عصراً. لكنها لم تفعل أبداً. واضطرت زوجتي أخيراً أن تكفّ عن التدخل في شئونها الخاصة بعد أن رفضت صداقتها بعناد.

وأخفقت أنا أيضاً في كسب صداقتها. فقد واجهتني بصدود أشد. كانت تتجنبني بتعمد، تنأى عني، تخشاني. نعم تخشاني! وعجبت لماذا. وأعترف أنها صدمتني. فلم أتوقع منها هذا الانطواء. حاولت أن أمحو من قلبها الخوف. كلمتها برقة. سألتها عن بعض أمورها الخاصة باهتمام. لكنها لم ترد عليّ بكلمة واحدة. وكانت تمتمنع حتى عن ردّ التحية المألوفة.! وإذا انفردت بها في المنزل أسرعت إلى غرفتها وتوارت فيها وأغلقت الباب! ولن تفارق غرفتها حتى تعود زوجتي. أثار تصرفها هذا حنقي وإشفاقي في آن واحد، وانصرفت أخيراً عن التدخل في أمورها الشخصية. لكن حالها ظلت تحرك في قلبي عواطف الاشفاق. كانت تحبس نفسها معظم ساعات النهار في غرفتها الصغيرة المطلة على

حديقة المنزل الخلفية. وكثيراً ما رأيتها والفة أمام النافذة واجمة وهي ترسل أنظارها الساهمة نحو الأفق البعيد. لكنت أعجب بماذا تفكر، بماذا تحلم. لعلها تحلم بذلك الفارس الجبليّ الجميل ذي النطاق العريض المزركش الذي سيحملها بعيداً، بعيداً، منطلقاً بها إلى قريتها فوق الجبال الشماء! ثم أدركت يوماً أنها لم تكن تحلم بأشياء مسرّة. ذات صباح أخبرتني زوجتي أنها فاجأت أمنة تبكي بحرقة، وحالما رأتها مسحت دموعها وكفت عن البكاء. ولم ترد على أسئلتها بكلمة واحدة. هرعت إليها مشفقاً متألماً. ألقيت عليها سيلاً من الأسئلة، لكنها زمّت شفتيها واستحالت إلى تمثال أخرس! وأخيراً التفتّ إلى زوجتي وقلت: المسألة واضحة يا سميرة. إنها ليست مرتاحة في هذا المنزل، ويجب أن نكلّم قريبها في الأمر.

فالتفتت نحوي بسرعة وهتفت بانزعاج شديد: لماذا عمو سامح؟ أنا أحب سميرة خانم كثيراً.. انا أحب..

ثم فطنت إلى اندفاعها فقطعت كلامها فجأة، وتورد خداها. وتبادلنا نظرات مدهوشة. لِمَ هذا الانطواء إذن، لِمَ هذه الكآبة، لِمَ هذا الوجوم؟!

وعادت أمنة إلى جمودها وكأنها لم تتكلم. كان من العبث الاستمرار في سؤالها. وبدا من نظراتها الشاردة الثابتة، من هيئة شفتيها المزموتين، من التقلصات المرتسمة على صفحة وجهها، أنها لن تتكلم مرة أخرى. فتركناها لشرودها ووجومها يائسين. ولكن تلك النوبة من البكاء لم تكن الأخيرة، ولا شك أنها لم تكن الأولى. وبدأت زوجتي تكتشف هذه النوبات بين حين وآخر. حدثتني عنها والدموع تترقرق في عينيها. "ما

أمرّه من بكاء يا سامح، ما أمرّه من بكاء! إنه بكاء إنسان مكلوم القلب، مهيض النفس، مجروح جرحاً عميقاً. إنه بكاء إنسان يقاسي آلاماً مبرحة. آخ يا ربي، لماذا يجب أن تقاسي هذه الطفلة مثل تلك الآلام؟!"

لم تدع زوجتي وسيلة للاطلاع على دخيلة نفسها دون أن تجربها فلم تفلح. وجربت بدوري أن أقتحم عالمها الحزين الغامض. كنت أحسّ نحوها برثاء عميق. وكان يدهشني أن تغوص هذه الصبية في هوة من الأحزان لا قرار لها. ما الذي يمكن أن يمسّ نفس صبية بالألم هذا المسّ العميق؟! ولم تجدِ محاولاتي أيضاً. اعتصمت بالصمت تجاه أسئلتي. ومع أنها لاحظت الأثر الذي يخلفه فينا عنادها لكن ذلك لم يؤثر في صمتها.

وذات مرة شهدتها وهي أسيرة إحدى نوباتها الأليمة، فلم أمتلك نفسي وصرخت في وجهها: لماذا تعذبيننا معك يا آمنة؟!

فارتعدت بشدة كالمقرورة، وتساقطت دموع كبيرة من عينيها. ومنذ ذلك الحين لم تعد زوجتي تسمح لي بالدنوّ منها أثناء تلك النوبات. ولم تعد تحدثني عنها إلاّ عرَضاً. اكتفت بتلميحات عابرة تكشف عن حيرتها. "لا بد أن نفعل لها شيئاً يا سامح. لا بد أن نفعل شيئاً من أجلها". ولكنني لم أكن أعلم ماذا عسانا نفعل. كان صمتها صمت أبي الهول. كان كصخرة هائلة تتحطم عليها أمواج البحر دون أن تؤثر فيها. وجربت أن أستفسر من قريبها عن سبب حزنها، وكان يزورنا في مطلع كل شهر ليقبض راتبها، فتملص من الجواب. وزعم أنها اعتادت على البكاء منذ الصغر. ولاحظت زوجتي أن نوبات بكائها تشتد كلما دنا موعد إجازتها.

وكانت امنة تذهب في مساء كل خميس إلى منزل قريبها وتمضي الليلة هناك. ولم تكن ملاحظة زوجتي تبدو منطقية، فلم أعرها اهتماماً.

لم تكفَّ زوجتي عن المثابرة في محاولاتها للكشف عن سبب حزن امنة. ثابرت سرّاً على تحقيق هدفها. وبدا ذلك شغلها الشاغل. وضاعفت عنايتها بها، وغمرتها بحنان فيّاض. لم أكن أعلم بماذا كانت تحاورها. كان صوتها يتناهى إلى سمعي أحياناً وهي تتحدث إليها بحنان. وأعترف أن قصة حزن آمنة وإصرارها على الصمت أخذت تبعث في نفسي الملل، فلم أعد أعير الأمر أهمية.

وذات أمسية كنت مختلياً بكتبي، فاقتحمت زوجتي الغرفة غائمة الوجه وقالت بصوت نمّ عن تأثر عميق: سمعت الآن أشياء فظيعة يا سامح.. أشياء فظيعة.

وارتمت على المقعد والدموع تلتمع في عينيها وهي تهمهم: آخ يا ربي.. هذه الصبية المسكينة، هذه الصبية البائسة. كيف يمكن أن تقاسي كل هذا البؤس، كل هذا العذاب؟!

وتساءلت قلقاً: ماذا سمعت يا سميرة؟!

قالت ووجهها يختلج برثاء عميق: هذا البؤس لا يصدق. آمنة قاست كثيراً يا سامح.. قاست كثيراً منذ طفولتها. وذلك الرجل المتوحش الذي يقبض أجرها كل شهر ليس قريبها. أبوها باعها كما يباع المتاع ليتخلص من عبئها.

وسال خيطان رفيعان من الدموع على وجنتي سميرة، وابتلت رموش عينيها.

فقلت: أنا لا أستغرب ذلك. سمعت الكثير من مثل هذه القصص.

فجففت دموعها وقالت: وكيف يمكن أن يوجد أمثال أولئك البشر القساة يا سامح؟! لا أستطيع أن أتصور ذلك. كانت سيدتها الجديدة تقسو عليها كثيراً وهي تعلم أنها وحيدة في الحياة، أن أباها وأمها توفيا ولم يبق لها أحد. كانوا يعاملونها كعبدة. يقولون إن زمن العبودية قد مضى..

فقلت ساخراً: ومن قال هذا؟ أنت وغيرك من المرفهات يتصورون ذلك، ولكن..

قالت مقاطعة: دعنا من الجدل يا سامح. أنا لا أريد أن أتجادل معك الآن. كلامك صحيح. وأنا أعلم الآن أكثر منك. فهناك طريقة جديدة للاستعباد. فالأسر الغنيّة تعمل عقد زواج صوريّ للخادمة على أحد أفرادها فتصبح عبدة لهم. وهذا ما حدث مع آمنة.. إلاّ أنها هربت من أسيادها على أية حال.. ولكن ما الفائدة؟ إنها وقعت بأيدي أناس أقسى منهم. فذلك الرجل الغليظ المتوحش الذي يزعم أنه قريبها هو سيّدها الجديد.. وإنّي أكتشفت سبب بكائها يا سامح. فهي لا تريد رؤيته. لا تريد الذهاب إلى بيته يوم عطلتها.

- الأمر في غاية السهولة. سأطرد ذلك الرجل لو جاء يسأل عنها مرة أخرى.

- لا تلجأ معه إلى العنف يا سامح. آمنة مصرّة على إعطائه راتبها لتأمن شرّه، فهي تخشى أن يدلّ أسيادها القدماء على مكانها. وكل ما تريده أن تمتنع عن الذهاب معه.

- سأعرف كيف أكلّم ذلك الجلف إذا جاء في طلبها.

حلّت أمسية الخميس، ولم تمض آمنة إلى بيت قريبها المزعوم. وانتابها قلق حاد أخذ يشتد كلما تقدم الوقت. واضطربت عيناها الشهلاوان الجميلتان في محجريهما. كانت تنطلق إلى باب الحديقة بين لحظة وأخرى كطير ملهوف، ثم تعود وعيناها تومضان بغبطة مشوبة بالقلق. وقالت زوجتي بعصبية: إذا أصرّ قريبها المزعزم على اصطحابها فتخاصم معه.

لكن الرجل لم يُقبل ذلك المساء. وكم سرّت آمنة لذلك. وأقبل صباح اليوم التالي. كنا نتناول الفطور، وكانت آمنة تشرف على خدمة المائدة. وفجأة رنّ جرس الباب رنيناً طويلاً، حاداً. ورفعت أنظاري إلى آمنة. شحب وجهها شحوباً شديداً حتى حاكى لون الليمون. وتلاحقت أنفاسها، وأخذ صدرها الناهد يعلو ويهبط في حركة سريعة. ثم اندفعت نحو الباب بخطوات مرتبكة وهي تتعثر في مشيتها وتكاد تسقط. وتناهى إلى مسامعنا صوت قريبها المزعوم وهو ينفجر بسيل من العبارات الغاضبة. لكنها لم ترد عليه. وبادرني حالما ذهبت لاستقباله يقول غاضباً: لماذا لم تزرنا آمنة أمس في إجازتها؟!

غمرتني موجة من الحنق، لكنني كتمت عواطفي. وقلت بهدوء: أصبح لآمنة عمل كثير، ولن تستطيع ترك البيت بعد اليوم.

فاربدّ وجهه، واضطربت عيناه، وهتف بانزعاج: يجب أن تأتي لزيارتنا في إجازتها، نحن نريد أن نراها.

قلت بلهجة قاطعة: اسمع. آمنة لا ترغب في رؤيتكم وأنت لا تستطيع أن ترغمها على زيارتكم. سندفع لك أجرها الشهري كالعادة حسب

رغبتها، ولكن لا تقترب منها. وإذا لم يعجبك هذا الكلام فلن تقبض فلساً واحداً بعد اليوم.

فتصاغر لهذا الهجوم المباغت، وانهال على شاربه الغزير فتلاً. وبدون أن يضيف كلمة أخرى انصرف وهو مكفهر الوجه.

* * *

كان ذلك اليوم فاتحة لعهد جديد في حياة آمنة. أصبحت فرحة جداً، سعيدة جداً. صار وجهها الجميل المحبوب متطلقاً على الدوام. واختفت من عينيها النظرات المرتاعة الوجلة. وأحبها كلانا من أعماق قلبه. من المؤكد أن فيها شيئاً يثير الحب. وشغفت بها زوجتي، وغدا اسم آمنة على طرف لسانها. وبادلتنا عواطفنا. شاركتنا حبنا. ولم تكتم هذا الحين حبها. كانت ترنو إلينا بحنان وشغف ونحن نجلس في حديقة المنزل متقابلين، زوجتي مقبلة على "التريكو" أو "التطريز" أو الخياطة، وأنا مقبل على كتبي وأوراقي. وكلما ضبطتها وهي ترنو إلينا بتلك النظرات حولت عينيها عنا بسرعة في حياء وارتباك. وأضحت صديقة مقربة لزوجتي. واكتشفت زوجتي فيها ذكاء وقّاداً وروحاً فكهة. حدثتها عن نوادر سيدتها القديمة.. كيف كانت تقلب المنزل في لحظة واحدة إلى جحيم.. كيف كانت تبدو مضحكة في لحظاتها الجنونية. وحدثتها عن قريبها المزعوم وعن زوجته العرجاء. كيف كان يقسو في ضربها إن لم تأته بربح وفير. كيف كانا يقضيان الليل بطوله أحياناً وهما يتشاتمان. حاولت أن تسلّي زوجتي بكل ما تملك من موهبة. لكنها لم تكن بهذا الابتهاج والسعادة طوال الوقت. ففي بعض الأحيان، وبينما تكون مندفعة في حديثها المرح،

تنكمش فجأة على نفسها وتلوذ بالصمت ويكتسي وجهها بطابع الكآبة القديم. وكانت زوجتي تخفق في إعادة المرح إليها. إذ تعتصم بصمتها وتتجنب النظر إليها. وقد تسارقها بنظرات غريبة وهي مضرجة الخدين. فاعتادت زوجتي ألاّ تضايقها في تلك النوبات المتباعدة.

اعتقدت زوجتي أن الحنان هو كل ما يعوز آمنة. لقد قاست كثيراً منذ صغرها. لقد فقدت حنان أبويها. وقد لقيت على يدي سيدتها قسوة فظيعة. ثم تلقفها ذلك الرجل الجلف، ويبدو أنها عانت على يديه كثيراً أيضاً. وتعاظم حنان زوجتي نحوها يوماً بعد يوم. وبدأنا نفكر بمشاريع أخرى لها.. مشاريع تحقق لها مستقبلاً هانئاً. فكرنا أن نرسلها إلى مدرسة ليلية لتتعلم القراءة والكتابة. فكرنا أن نعمل بجد على تغيير حياتها. فكرنا لها بكل شيء، ولكن شيئاً واحداً لم يخطر على بالنا. هل ستبقى معنا زمناً طويلاً؟

***

وفي بداية الشهر التالي حضر الرجل ليتسلّم مرتّبها. قابلته آمنة أولاً فثارت مشاحنة بينهما. فخرجت إليه ومعي المال. وأخذ يعدّ المبلغ ببطء ولمّا انتهى ظلّ واقفاً وقد بدا التردد على وجهه، واستدرت لأعود فقال برجاء: لماذا تمنعون آمنة عن زيارتنا؟

أجبته بلهجة حازمة: قلت لك إنها لا ترغب في رؤيتكم وانتهى الأمر.

فنظر إليّ بتحدٍ وقال بقحة: آمنة قحبة! عيب عليكم تبقى في البيت.

فبهتّ لكلامه، وتملكني الغضب لكنني تحكمت في أعصابي وقلت بهدوء: خير لك أن تذهب في الحال. وإلاّ ترينا وجهك مرة أخرى.

فرماني بنظرات شرسة ثم بصق على الأرض وتولّى مدمدماً.

عدت إلى غرفتي مستاء وإذا بآمنة منتصبة أمامي. وراعني منظرها المفزع، ألجمني. اتسعت عيناها الشهلاوان اتساعاً غريباً، واضطرب صدرها اضطراباً مخيفاً. وقبل أن أقول شيئاً ارتمت على يديّ وأمطرتهما بالقبلات. وهمست في ضراعة والدموع تتساقط من عينيها: أرجوك عمو سامح، أرجوك.. لا تقل لسميرة خانم.. أرجوك.

فقلت بلطف وقد أخذت بارتياعها: ليس هناك شيء تخشينه يا آمنة، اطمئني.

فتمتمت وعيناها مليئتان بالدموع: أشكرك عمو سامح.. أشكرك.

ثم اندفعت بخطوات متعثرة خارج الغرفة.

في صباح اليوم التالي كان الفطور جاهزاً على المائدة. ولكن آمنة لم تكن في غرفة الطعام، لم تكن في المطبخ، لم تكن في غرفتها. وفتشنا عنها في كل مكان بدون جدوى. وأدركنا أخيراً أننا نخادع أنفسنا. لقد غابت عنا إلى الأبد!

ووقفت أرقب زوجتي وهي تقلّب الثياب التي تركتها آمنة مرتّبة على السرير. ولم تكن قد أخذت معها سوى القميص البالي الذي كانت ترتديه في اليوم الأول. وانثالت صور حياة آمنة على ذهني والحقائق الأليمة تتكشف لعينيّ. وتناهى صوت زوجتي إلى سمعي حائراً متألماً: آخ يا

ربي، إلى أين ستمضي هذه اليتيمة؟! ليس لها أمّ، ليس لها أب، ليس لها أحد. إلى أين ستمضي؟!

السرّ

أشار عقرب الساعة إلى الثانية بعد الظهر ولا يزال أمامه بعد نصف ساعة يقضيها في هذا المقهى. لقد انصرف جميع الرفاق، واشتد جوعه، واستبد به السأم، وان كل شيء في هذا المقهى ليبدو له كريهاً، مضايقاً، يثير الاشمئزاز. وتجشأ الحاج طه بصوت ضخم دوّى في أرجاء المقهى كخوار الثور، فأحسّ أنه يكره هذا المقهى من أعماق قلبه. ونهض مسرعاً ودسّ يده في جيب بنطلونه وأخرج قطعة نقود رماها في الصينية، واتجه نحو الباب، فهتف الحاج طه بصوته الجَهْوَرِيّ: في أمان الله أستاذ.

فأومأ برأسه إيماءة خفيفة وخرج إلى الشارع. وسار في اتجاه "باب المعظم"، وأخذ يطيل النظر إلى واجهات المخازن. يجب أن يتسكع. يجب أن يمشي دقيقة ويقف أخرى.. لماذا لا يتجه في الحال إلى البيت ويخبرهم بكل شيء؟ لقد سئم هذه المخادعة السخيفة. "أخبرهم بكل شيء؟" وابتسم ساخراً. "ماذا أقول؟! إسمعي يا حجيّة. إسمعوا يا سليمة وسلمان ومحسن. أزفّ إليكم بشرى.فصلت من الوظيفة". ويا لها من بشرى! رب العائلة ومعيلها الوحيد يفصل من عمله. ومن سيقدر موقفه؟ أمه، أم إخوانه، أم أخواته الصغار؟! "هذا القرار سخيف بلا شك، وسأنتظر علني أجد عملاً". إنه ليعلم جيداً أنه يخادع نفسه، فهو يبحث عن عمل منذ شهر، منذ أخبر بنبأ فصله، وليس ثمة بصيص من أمل.

وأين يجد العمل؟ فإما أن يعمل المرء في هذا البلد موظفاً لدى الحكومة أو أن يفتح حانوتاً ما. والحانوت يحتاج إلى رأس مال، وليس لديه دينار واحد يفيض عن حاجته.

تصفّح وجوه العابرين ومزيج من مشاعر الحنق والثورة يضطرم في صدره.. كلا، من الأفضل أن يذهب في الحال إلى البيت ويخبرهم بكل شيء، فروحه المعنوية تسفّ يوماً بعد يوم، وإنه ليفقد حبه للناس شيئاً فشيئاً. وكم شعر بكراهية نحو الحاج طه قبل دقائق. هذا الشخص الذي كان يبدو له دائماً نموذجاً للفرد الشعبي بطيبته وأريَحيته وتوقد عواطفه. ومن المسؤول؟ إنه الكتمان الذي يتمسك به بلا سبب مقبول. كلا، إنه لن يدع روحه المعنوية تنحدر إلى الحضيض وسيصارحهم بالحقيقة.

وانتابه حماس مفاجيء فأسرع في سيره حتى بلغ "باب المعظم" واستقل "الباص" إلى البيت. وفي البيت كانت الأم وسليمة تهيئان مائدة الطعام. قالت الأم وقد أضاء وجهها ببسمة حنون: الغدا حاضر يا سعيد.

قال سعيد متشمماً: أشمّ رائحة طيبة.

فقالت الأم باسمة: إنها أكلتك المفضلة. محشي الباذنجان.

فهتف سعيد متهلل الوجه: بارك الله فيك يا حجية.

قالت الأم وقد سرها مظهره: بالعافية يا سعيد. إن شاء الله أكون حجية بعون الله وعونك.

تذكر سعيد الحقيقة المرة، فعاوده الأسى، وغام وجهه وقال بارتباك وهو يتجنب النظر إليها: إن شاء الله.

ماذا لو علمت أنه يكذب عليها، انه يخدعها، انه لـن يحقق لهـا يومـاً تلك الأمنية الغالية؟ أيمكنه حقـاً أن يحطـم آمالهـا بهـذه السـهولة ويفضـي إليها بالحقيقة المخيبة؟

وضعت سليمة صحون الطعام على المائدة، فجلست الأم قبالـة سـعيد وهي ما تزال تلتهمه بعينيها الحنونتين. ومدّ يده إلى الطعام وقد غاضت شهيته. واسترق إلى أمه النظر فخيّل إليه أن ثمة هالة من الجـلال تحيـط بوجهها السمح الهـادىء المغضـن الجبيـن. كـلا. إنـه لا يمتلـك الشـجاعة لمصارحتها بالحقيقة. ربما عثر على عمل غداً أو بعد غد. ومـا الداعـي إلى العجلة؟!

وكان وطء أنظارها على وجهه يشتد لحظة بعد أخرى. واختلس إليها نظرة سريعة فاجتذب انتباهه حزمة من الشعرات البيض تطـل مـن تحـت العصابة السوداء. أحسّ برغبة قوية في معاودة النظر إلى تلك الشـعرات البيض وكأنه يراها للمرة الأولى، وكأنها تحدثه عن تعب السـنين.. كـلا. لن يخبرها بالحقيقة. إن ضجيج ماكنة الخياطـة لا يزال يدوي فـي سـمعه. كـانت الماكنـة تواصـل ضجيجهـا الرتيـب ليـلاً ونهـاراً. كـان يعـود مـن المدرسة وقت الغداء فيستقبله صوتهـا عنـد البـاب، وكـان يرجـع عصـراً فيتردد في سمعه موسيقاها الصاخبة. وكان يعكـف علـى كتبـه إلـى وقـت متأخر من الليل وصوت الماكنة ما يـزال يجلجـل، وأمـه مـاتزال منحنيـة عليها. مـن الصبـاح حتـى المسـاء، حتـى منتصـف الليـل، حتـى الصبـاح التالي! ولم تكف الماكنة عن ضجيجها إلاّ حينما أنهى دراسته فـي الكليـة وتوظف لدى الحكومة. وفـي ذلـك اليـوم خلعـت الأم ثـوب الحـداد الـذي

ارتدته منذ وفاة أبيه. وارتدت فستاناً ارجوانياً خاطته خصيصاً لتلك المناسبة.

وكانت الأم تحاول عبثاً الاحتفاظ بابتسامتها المغتصبة، وكانت يدها تتنقل بين فمها وصحن الطعام بصورة آلية. أه لو حدّثها بما يضمر لألقى الهمّ عن قلبه واستراح، ولاستراحت هي. وفي كل يوم تهمّ أن تفاتحه ثم تحجم. لماذا لا تفاتحه الآن؟ ولكن ماذا لو زادت همّه وألمه؟ لا. لا. لن تفعل هذا. ستنتظر أن يبادئها هو. "بجاهك يا أبا الحسن، خلّه يتكلم". ما معنى الحياة إن شابها كدر يضيب سعيد؟ وما قيمتها إن لم تزينها بسمته الحلوة وضحكاته المرحة التي تملأ قلبها غبطة وحبوراً؟ "الله ينتقم منك يا من كنت السبب، بجاهك يا أبا الحسن". إن الطعام لم يعد مريئاً بعد أن تكدّر سعيد. ويا لها من سعادة تلك التي كانت تغمرها قبل عودة سعيد من العمل. فهي وسليمة تنشغلان في إعداد المائدة، وإنها لتتخيّل وجه سعيد الضاحك، لتسمع ضحكته الرنانة، إنه يشبه أباه في كل شيء. في عينيه، في بسمته، في طريقة حديثه. "نم هنيئاً يا طعمة في قبرك فأنت خلّفت ولداً يبيّض الوجه". حمداً وشكراً لله، لقد جرح قلبها في شبابها، ولكن الله كتب لها السعادة في شيخوختها. ويا لها من سعادة بعد الغداء حينما تشرب الشاي مع سعيد. وينطرح سعيد على الحصيرة متكئاً على مرفقه ويسترسل معها في حديث ممتع موصول حول الأقرباء، حول الجيران، حول كل شيء. وأنغام "الكتلى" تترامى على سمعها كأبدع أنغام. والابتسامة العريضة لا تفارق وجه سعيد. وضحكاته الرنانة تنطلق بين حين وآخر لفكاهة تقصها. "ربي، لمَ كتبت عليَّ العذاب؟!" فسعيد لم

يعد يبتسم. ومنذ أسابيع لم تجلجل ضحكته في أرجاء البيت. حتى بسمته الحلوة غاضت ولم يعد لها أثر. "بجاهك يا أبا الحسن. متى تعود تلك الأحاديث التي تردّ الروح؟".

رنت إلى سعيد باسمة وحاولت أن تقول شيئاً، لكن وجهه المتجهم شلّ لسانها. لكأن سكّيناً حاداً تقطع أحشائها وهي ترى وجه سعيد الغائم. "عيني سعيد، وجهك للضحك لا للعبوس"

وكان سعيد يحاول أن يقول شيئاً ما، أن يبدد الصمت الخانق. وكان يحسّ أن صمته الحزين يخنق البيت، يحيله إلى مقبرة موحشة. ولكنه لم يتذكر شيئاً يستحق القول، ولم يفلح في دفع كآبته.

كفّ عن الأكل، ودفع مقعده قليلاً إلى الوراء، فكفّت الأمّ عن طعامها في الحال. وقال سعيد: لماذا لا تُكملين غداءك يا حجية؟! أنت لم تأكلي شيئاً.

فقالت الأم محتجة: أنت لم تأكل شيئاً. أنا شبعت والحمد لله.

وتساءلت سليمة وهي تراقبهما عن بعد: هل أحضر الشاي؟

فقال سعيد: إذا كان جاهزاً.

وهمس لنفسه: "إنني وحش. كيف يمكن أن أسلك هذا المسلك القاسي؟!"

وكانت سليمة تجلس القرفصاء بجوار موقد الشاي وعيناها معلقتان بوجه سعيد. وحاولت أن تفهم لماذا يعذب نفسه، لماذا يعاند الحكومة، لماذا يلقي نفسه في التهلكة، فلم تستطع أن تفهم. وكان ذهنها منصرفاً باستمرار إلى التفكير في بنات عيسى. منذ خمسة أيام لم ترَ أية واحدة

منهن. ولا بد أن تعترف بأن صداقتهن لها قد فترت. ولماذا تغالط نفسها؟ فهي تعلم ماذا كنّ يبغين من وراء صداقتها. وقد بلغت بهن قلة الذوق حداً جعلت الأخت الصغيرة تشيح بوجهها عنها قبل يومين حينما التقت بها في الطريق. أما وفيّة، الأخت الكبيرة العاقلة، فلم تزرهم خلال عشرة أيام الماضية سوى مرتين. ولم تكن تفوت يوماً واحداً من قبل دون أن تثبت وجودها، وخاصة في الأوقات التي يكون فيها سعيد في البيت. وكانت تظهر لها من الحب ما لا تظهره أخت لأختها. كانت تعلم مبعث كل ذلك الحب. لم يكن من أجل سواد عيونها. لكنها على أية حال كانت تعتقد أنها زوجة صالحة لسعيد. فهي خفيفة الدم، وسمارها وإن كان غامقاً إلاّ أنه معجون بدمها الخفيف. ولكن سعيد لم يعد "أفندي" وأمها لم تعد "أم الأفندي"، وهي لم تعد "أخت الأفندي"، وعليها أن تتعلم موديلات جديدة لتجتذب إليها الزبائن. وأمها لم تعد تصلح للقيام بالمهمة فهي لا تحسن سوى موديلات الطرز القديم. وهي لا تحب أن ترى وفيّة بعد الآن، ولا أن ترى أختها الصغيرة لبيبة، فهما لا يسويان شيئاً، ومعدنهما ليس معدناً أصيلاً. وماذا يعيب الخياطة، ماذا يعيبها؟! إنها مهنة شريفة يكسب منها الإنسان عيشه بكدّه، وإن خياطات الطرز الحديث يربحن عشرات الدنانير. وقد بعثت حمدية الخياطة أخاها إلى بلاد الإنجليز ليكمل دراسته. ويا ليتها تبعث سعيد إلى بلاد الإنجليز ليحصل على شهادة أعلى. وحينئذ لا تقدر وفيّة أو من هي أكبر منها من بنات الجيران أن ترفع رأسها عليها.

صبت سليمة الشاي في قدحين وحملتهما في صينية صغيرة إلى مائدة الطعام. وناولت قدحاً إلى أمها، وتناول سعيد القدح الثاني. وتفرّست في وجه سعيد المقطّب وحاولت أن تفهم مرة أخرى لماذا يعاند الحكومة، لماذا يرمي نفسه في التهلكة، لماذا يعذّب نفسه، فلم تستطع أن تفهم.

وتذكر سعيد وهو يذوّب السكر في قدحه جلسات الشاي الممتعة في غرفة النوم. وغمره حنين دافق إلى تلك الجلسات، إلى فكاهات أمه عن "أم حمد" إلى ضحكاته المرحة المجلجلة. ورفع إليها أنظاره فإذا بعينيها معلقتين بوجهه وهما تشعان حناناً. كلا، لا بد أن يخبرها بالحقيقة. يجب أن تفهم دوره في هذه الظروف وأن تعيه. وارتشف قدحه في جرعتين. نعم سيخبرها بالحقيقة الآن. وطالعها بنظرة سريعة، ثم حوّل عينيه إلى سليمة. الأفضل أن يطلع أمه فقط.

رشفت الأم شايها بسرعة وأعادت القدح إلى المنضدة. وكانت لا تزال تفكر بوجوب إخباره بالأمر. وأخبرته بينها وبين نفسها، لكن شجاعتها خانتها ولم يسعفها صوتها. ملأت سليمة القدحين مرة أخرىوحملتهما إلى النضدة، فقال سعيد: سليمة، أيمكن أن تنظفي غرفتي الآن؟

وكانت سليمة قد نظفتها قبل ساعات فنظرت إليه مدهوشة، وتركت الصالة وهي تتلكأ في سيرها. تنحنح سعيد مرات عديدة، واسترق إلى وجه أمه نظرات سريعة، ثم قال بعجلة: حجية، الحكومة فصلتني من الوظيفة.

وهبط على نفسه هدوء غريب، وشاع الاطمئنان في حناياه، وزال التوتر من أعصابه. "كان يجب أن أقولها قبل الآن. ما أسهل ذلك!"

وانتظر أن ترد عليه أمه لكنها بقيت ملازمة لصمتها. تطلع إليها فإذا بشفتيها تنفرجان عن بسمة عريضة. "هذا ما كنت أخشاه.. احتقارها". وضرب بجمعه على منضدة الطعام فأحدثت أقداح الشاي صوتاً مجلجلاً، ونهض محنقاً وهتف في شبه ثورة: نعم، فصلتني الحكومة لمدة ثلاث سنوات، لا لشيء إلاّ لأنني أكافح الطغيان والظلم.

وانطلق يذرع الغرفة بخطوات سريعة، وهو غائم الوجه، غاضب العينين، وأخذ يتكلم بعصبية: أنا أدرى بماذا تفكرين يا حجية، ولست ألومك على أفكارك، فإن مسؤوليتي تجاهكم عظيمة، وهي التي حدّت من نشاطي في مكافحة الطغيان وإلاّ لكنت الآن في السجن. ولكن هناك مسؤولية أعظم، ويجب أن تعلمي أنه لم يكن بوسعي أن أفعل أقلّ مما فعلت. فهناك واجب فوق الفرد، فوق العائلة، فوق المصلحة الشخصية.

وكان الفرح قد أربك الأم فعجزت عن الكلام. ولكن ابتسامتها كانت تتسع لحظة بعد أخرى. "أفرجت يا قريب الفرج". وقاطعته فجأة: أنت زينة الرجال يا سعيد، فمن يعرف واجبه إذا لم تعرفه أنت؟

توقف سعيد عن سيره العصبي، وثبت عينيه على وجهها بدهشة. وكانت الابتسامة ما تزال تزيّن شفتيها ووجهها يضيء استبشاراً. "إنها تبتسم! أفهمت ما قلت حقيقة؟!" وتساءل في دهشة: ألست غاضبة عليّ يا حجية؟!

فقالت الأم في حرارة: لا أراني الله ذلك اليوم الذي أغضب فيه منك يا سعيد. وهل يمكن لإنسان حنون مثلك أن يفعل غير ما فيه صلاح وخير؟ أنت لم تعرّض وظيفتك للخطر وتحرم عائلتك من رزقها إلاّ ووراء عملك خير عميم. أنا امرأة جاهلة يا سعيد، لكنني أقدر أن أفهم هذه الأمور.

تهافت سعيد على مقعده قبالة الأم وقد عراه الارتباك. وقال في خجل: كم كنت سخيفاً يا حجية. لم يكن لهذا التردد والكتمان من داع أبداً. كان يجب أن أخبركم بالأمر منذ اليوم الأول، وإني لخجل من نفسي. كنت أخفي الحقيقة عنكم وكأنني قمت بعمل مخزٍ لا بعمل يرفع الرأس. المعذرة إن كنت أسأت الظن بكم. ولكنك تعلمين ماذا يعني فصلي من الوظيفة. كنت أبحث عن عمل كل يوم دون جدوى. كنت أخرج من الصباح المبكر وأعود وقت انصراف الموظفين لئلا تفطنوا إلى الحقيقة. كنت آمل العثور على عمل خلال هذه المدة ثم أخبركم لئلا تقلقوا. لكن من تمسته نقمة الحكومة في هذا البلد تسدّ أبواب الرزق في وجهه.

فقالت الأم وعيناها تتوقدان: أنت لم تخدعنا يا سعيد، فنحن نعرف الحقيقة، فصديقك نعيم التقى بأخيك محسن وأخبره بالأمر مصادفة، وكنت أحاول طيلة هذه الأيام مصارحتك بالأمر، ولكن لساني كان يعجز عن الكلام لئلا يزداد ألمك. وإن دقيقة من ألمك تعدل عندي سنة من العمر.. وعلامَ هذا القلق يا سعيد؟ نحن أعددنا ماكنة الخياطة في نفس اليوم الذي

"أنا لست عاطفياً، لكنني لا أتمكن من امتلاك زمام نفسي". نهض سعيد من مقعده وأكبّ على الأم يعانقها. وكانت عينا الأم قد اغْرَوْرقتا بالدموع، وسال خطّان من الدموع على وجنتيها، وسقطت دمعتان حارّتان على عنق سعيد.

العاشقة

هبّت نسمة خفيفة فطارت ورقة من فوق المنضدة وسقطت على البلاط. وانتبهت سلوى من أفكارها ودفعت الكرسي قليلاً إلى الوراء وانحنت على الورقة والتقطتها. كانت المسألة "الفيزياوية" ما تزال متعذرة الحل، وربما قضت ساعتين أو ثلاثاً حتى تتوصل إلى النتيجة. كم تكره الفيزياء! إنها لم تحبب هذا الدرس قط، ولم تشعر يوماً بأدنى مودة نحو مدرّسته الست حسيبة. ولو كانت الست رفيقة تدرّس الفيزياء لهان الأمر، فليس في الإمكان احتمال الفيزياء والست حسيبة في آن واحد. وما أبعد الفرق بين الست رفيقة مدرّسة "الاجتماعيات" والست حسيبة! فالست رفيقة جميلة، نازكة، وفيها شبه كبير بالممثلة جون أليسون، ولا تسميها عاشقاتها بغير هذا الاسم. ودرسها محبوب، سهل الفهم، ينقضي أغلبه بالفكاهات، ولا تكاد أية طالبة ترسب فيه مهما كانت مهملة. فلا يبعد إذن أن يكون ادّعاء محباتها صحيحاً بأنها تملك أكبر عدد من العاشقات. أما الست حسيبة فهي دميمة، جافة الطباع، شديدة البخل بالدرجات، وأغلب الطالبات يرسبن في درسها. ومن المحتمل أن ترسب هي فيه هذا العام، فقد أوشكت السنة أن تنتهي ولمّا يزد معدلها على الخمسين، وإذا لم تنجح في امتحان غد فقدت آخر أمل في النجاح.

ألقت سلوى نظرة امتعاض على كتاب "الفيزياء" المفتوح أمامها، ثم أشاحت بوجهها عنه. إنها تعلم جيداً أن الواجب يقتضيها بذل جهد خاص

في إتقان المادة لكي تحصل على درجة عالية غداً، لكن ضجـراً لا يقـاوم يأخذ بخناقها ويشلها عن الدرس.

زفرت سلوى زفـرة حـارة وقـالت وهـي تزحـزح الكرسـي وتنهض: أوف ربي.

واتجهت إلى الشرفة واستندت بذراعيها إلى السياج الحديدي وأطلقـت أنظارها في حديقة الـدار. كـان إخوتهـا الصـغـار يتلاقفـون كـرة صـغيرة ويجرون وراءها في مرح وبهجة. ونازعتها رغبة قوية أن تعود صـغيرة مثلهم، أن تلعب بمرح كما يلعبون، ألا تعرف معنى للتفكير فـي الـدرس. وتخيلت نفسها وهي طفلة لم تتجاوز الخامسة، يتدلى شـعرها الذهبـي فـي غدائر طويلة بلـون الكهـرب، تتقـافز فـي حديقـة الـدار بفـرح وأم شـنون تجري وراءها متعثرة. لقد مضت تلك الأيام الجميلة إلى غير عودة، وأم شنون العزيزة ماتت منـذ سـنين وطمـرت معهـا ذكريـات الطفولـة. ولقد تحول شعرها الذهبي إلى بني فاتح وفقد لونه البديع!

رنّ جرس الباب الخارجي رنيناً متصـلاً فـانتزع سـلوى مـن أخيلتهـا، وأنصتت برهة فترامى إليها صـوت صـلاح وخالتها من الصـالة. وشـعرت بالفرح، وهمـت بمغـادرة الغرفـة، لكـن حماسـها فـتر فجـأة وتـرددت فـي الانصـراف. وأرسلت أنظارها عبر الشرفة، ثم تحولت إلى كتاب الفيزيـاء وظلت تنظر إليه حائرة، ثم تقدمت نحو المنضدة ووضعت ورقـة بيضـاء في الكتاب وأطبقته وغادرت الغرفة.

كانت أمها وخالتها وصلاح جالسين في الصالة، وكان صوت صلاح الجهوري يملأ المكان كالعادة. ألقت عليهم التحية وجلسـت صـامتـة تتقـل

أنظارها بين الوجوه في فتور. واستقرت عيناها على وجه صلاح، وجعلت تفحصه بدقة. أيمكن اعتبار صلاح جميلاً؟! إن قامته وإن لم تكن طويلة، لا يشوبها قصر، ولو اهتم بشعره الأسود الفاحم ومشطه بعناية لبدا بديعاً. أما قسماته فهي معتدلة ليس بينها ما ينبو عنه البصر، لكن هذه البعثرة في هندامه العام وفي ملابسه تجعله أقرب إلى القبح. وإنها لتعجب أي جدوى يمكن أن يكسبها الإنسان من وراء هذا المظهر، وأي ضرر يحدث لو صرف دقائق على أناقته.

التفت صلاح نحوها وتساءل: كيف الحال؟

- لا بأس.

- وكيف حال الدروس؟

تململت في مقعدها وقالت بضيق: وقع بلاء على الدروس، عندنا امتحان فيزياء غداً. أوف يا ربي، متى أخلص من الفيزياء؟

قال صلاح في سخرية خفيفة: تقدرين أن تخلصي منها هذا العام لو أردت.

- لا، لن أخلص منها هذه السنة. أنا أدري أنني سأرسب في الفيزياء. فمعدلي خمسون وأنا غير مستعدة لامتحان غد.

- وما الذي يمنعك من الاستعداد للامتحان؟!

- بدأت أدرس حالما انتهيت من الغداء، لكنني ما قرأت سوى صفحات قليلة. أنا لا أحب درس الفيزياء وأكره مدرّسته.

- الذنب ليس ذنب مدرّسة الفيزياء بل ذنبك، أنت لا تحبين الدرس. أنت مغرمة بتضييع الوقت.

قالت سلوى في ضيق وهي تعبس وجهها: أنت بطران يا صلاح. أنت تريد من الناس جميعاً أن يكونوا مثلك. لماذا تلومني دائماً؟!

فقالت أمها: لم يقل صلاح غير الحق، انت تحبين تضييع وقتك ولا تحبين الدرس. أنت تقضين اليوم كله في سماع الأغاني ولا يفوتك موعد من مواعيد طلبات المستمعين في كل الإذاعات.

فقالت خالتها وهي ترمقها بحنان: سلوى تدرس بقدر طاقتها، فهل تريدونها أن تقتل نفسها بالدرس؟

نهضت سلوى وقد بدا عليها الضيق وقالت: الرجال بطرانون فهم يقضون أوقاتهم في الخارج متى شاؤوا ونحن نظل حبيسات البيوت، ثم يتحدثون عن تضييع الوقت.

وخرجت إلى الحديقة وهي تحسّ أن ضجرها لم يعد يطاق. وشعرت كأنها حبيسة في قفص. ووقفت بعيداً تراقب إخوتها الصغار وهم يتراكضون وراء الكرة، وقفزت إلى ذهنها صورتها وهي في عمر "بهجت" الصغير وتخيلت نفسها تلعب بالكرة مع صلاح في حديقة الدار. لكأن صلاح الآن هو نفسه ذلك الطفل الضخم الجثة المشوش الهندام الجهوري الصوت الذي يلومها باستمرار على إفلات الكرة.

ولاحت بسمة خفيفة على ثغر سلوى وشعت في أعماقها غبطة مفاجئة. وهتفت بأعلى صوتها: بهجت.. إرم لي الكرة.

فصاح بهجت فرحاً: أتلعبين معنا؟

فهزت رأسها بالإيجاب، فضج الأطفال فرحين، وتراكضوا نحوها وهم يسوقون الكرة بأقدامهم. وأخذت سلوى تجري معهم، وتتبادل معهم

تلقف الكرة. وتزايلت كآبتها وتبدد ضيقهـا، لكنهـا مـا لبثـت أن انصرفـت عنهم ضجرة. وانتبذت ركناً منعزلاً من الحديقـة وجلسـت علـى العشـب. وراقبت الأطفال في فتور، لكن ذهنها شرد عنهم. وارتسمت في مخيلتهـا صورة صلاح وصابر، الأول بهندامه المشوش والثاني بأناقته المفرطـة. أي منهما يحبها أكثر من الثاني؟ إن صلاح ينسى نفسه أحياناً فتجيش فـي عينيه عواطف متقدة تنم عن غرام ملتهب، ولكن لمـاذا ينتهـز الفـرص دائماً ليوجّه إليها اللوم؟! صحيح أنه شاب مثقف وأن له مسـتقبلاً زاهـراً، فهو الأول في صفه دائمـاً، وهـو يقـرأ كثـيراً، وفـي غرفتـه مكتبـة مليئـة بالكتب، لكنه يقرأ أكثر ممـا يجـب. وطالمـا رثـت لحالـه وعجبـت كيـف يرضى أن يقضـي عمره كله في قراءة تلـك الكتـب التـي لا تنتهـي. وإنـه ليطلب منها عمل المستحيل إذ يريد منها أن تقرأ مثله. ولقد عزمت فعـلاً أن تحقق رغبته وتقرأ، لكن عزيمتها كانت تخونها كلما قلّبت الكتب التـي أحضرها إليها فواجهتها صحائفها الكثيرة وعدد كلماتها الهائل. ولـم يكـن بينها أي موضوع شائق، فكلهـا تبحـث فـي مواضيـع سياسـية واجتماعيـة جافة. إنها لم تستطع أن تكمل حتى رواية "إني راحلة" بـالرغم ممـا فيهـا من مواقف مشـوقة، وبـالرغم مـن أن زميلاتهـا قرأنهـا، بـل إن بعضهـن أعدن قراءتها مراراً. ولكنها لا تزال علـى أيـة حـال عازمـة علـى تنفيـذ تصميمها، ولا بد أن تثقف نفسها يوماً، وستقرأ كتباً كثيرة، وربمـا قـرأت جميع الكتب التي فـي مكتبـة صـلاح. سـمعت صـلاح يقـول فجـأة: أأنـت مصرّة على الرسوب في الفيزياء؟

فانتبهت مذعورة ورفعت رأسها فإذا بصلاح يستوي أمامها باسماً، فقالت في عتاب: أنت خوّفتني.

فقال صلاح في دعابة تشوبها سخرية خفيفة: بماذا كنت تفكرين؟ بالفراغ كالعادة؟ أليس من الأفضل لك أن تنجحي في الفيزياء؟!

فتأملت سلوى وجهه مفكرة. إن لون عينيه جميل حقاً، ومن الغريب أنها لم تلاحظ فيهما هذا الجمال من قبل، ولعل سبب ذلك أنها لم تتفرّس فيهما أبداً. إن صلاح مظلوم، فلا يبدو للناظر جمال عينيه مالم يحدق فيهما. ولا شك أنه أجمل من صابر، فصابر لا يملك سوى التأنق وأنفه كبير وإن حاول أن يستر كبره بشارب كثّ. لكنه يبدو ألطف من صلاح على أية حال، وربما كان سبب ذلك روحه الخفيفة وأناقته وظرفه. ولا شك أنه يحبها من أعماق قلبه. فهو لا يستطيع أن يكبح جماح عواطفه أبداً، ولا بد أن تظهر في حركاته وتعابير وجهه. إنه يعمل المستحيل كيّ يراها عدة مرات حينما تزور بيتهم لتدرس مع افتخار. وإن افتخار لتبتسم ابتسامة خبيثة وترمقها بنظرات خاصة كلما أطلّ عليهما صابر متعللاً بأتفه العلاّت. فهو تارة يطلب من افتخار قلماً، وطوراً يسألها عن موضع أحد أشيائه، ومرة ثالثة يوصيها بأمر لتذكره به فيما بعد.وهو في كل مرة يبدو شديد الارتباك لا يقوى على التحكم في أعصابه. ومع ذلك فلا بد أن يخلق المناسبات ليقول لها عبارة رقيقة، أو ليلقي فكاهة طريفة تنتزع منها الضحك انتزاعاً. وكم يبتهج لاستجابتها لفكاهاته، فيشع وجهه بالسرور ويرتجف شاربه الكثّ طرباً. حقاً إنه شاب رقيق، لطيف، وإنه لجدير بحبها.

سمعت صلاح يقول في سخرية: ما هذا الاستغراق في التفكير؟؟ أأنت مصرّة على التفكير في الفراغ وتضييع الوقت؟!

كلا، إن صلاح لا يحبها أبداً. إنه لم يحببها قط، ولو كان يحبها ما عاملها بهذه الخشونة. إنه يحاول دائماً أن يقتنص الفرص لينحى عليها باللوم، ليسخر بعقلها، ليستخف بشخصيتها. فأي نوع من الحب هذا؟!

قالت سلوى وهي تنتزع أغصان العشب وتلوكها: لماذا تحاول دائماً أن تغتنم الفرص وتلومني؟! أنا لا أحب هذه الطريقة.

فقال صلاح: ليس المهم حبك لهذه الطريقة أو عدم حبك لها، فأنت تضيعين وقتك بأتفه الأمور، وهذا أمر لا أرتضيه أبداً.

فقالت سلوى وهي تحدجه بنظرات حادة: أنت لست مسؤولاً عني، فلِمَ تزعج نفسك من أجلي؟!

فلاح اضطراب خفيف على وجه صلاح، وظل صامتاً قليلاً ثم قال: صحيح أنني لست مسؤولاً عنك باعتبارك ابنة خالي، لكنني مسؤول عنك باعتبارك إحدى المواطنات. وأنت أقرب مواطنة تسمح لي الظروف بالكلام معها في حرية. أنا لا أرتضي هذه الحياة لجميع الفتيات أمثالك اللواتي يتفنّن في تضييع أوقاتهن، ولو كان باستطاعتي لوبختهن جميعاً. أي خير يعود من ورائهن على هذا البلد؟! فهن لا يحاولن أن يثقفن عقولهن فيقرأن كتاباً مفيداً أو مجلة جدية.. سوى الروايات الغرامية التافهة والمجلات المصورة المبتذلة التي تتحدث عن الممثلات والممثلين وحياتهن الخاصة. كيف يتعرّفن بهذه الطريقة على مشاكل الحياة في بلدهن؟ وكيف يستطعن مشاطرة الرجل مسؤولية الحياة العائلية؟ وكيف

بثبتن جدارتهن للمساواة بالرجل؟! نحن في حاجة إلى فتيات مثقفات يدركن مركزهن وواجباتهن تجاه الوطن والمجتمع.

وسكت صلاح فران صمت ثقيل تعكره صيحات الأطفال المتقطعة. وعكفت سلوى على أغصان العشب تنتزعها بقوة ثم ترميها جانباً. نهضت أخيراً وقد لاحت على وجهها سأمة حادة وقالت بملل: أوف ربي. أنا ضجرة. لست أدري ماذا أفعل.

فقال صلاح بسخرية تشوبها رقة: أنت ضجرة طول عمرك. إذهبي إلى غرفتك وادرسي فيزياء.

فتلكأت سلوى قليلاً ثم قالت: نعم، الأحسن لي أن أذهب إلى غرفتي.

عادت سلوى إلى غرفتها وقلبها يفيض بحنين مبهم تمازجه كآبة وسأم. وجلست وراء منضدة الكتابة في ضيق وفتحت كتاب الفيزياء. ما أضخم هذا الكتاب! لكأن كل مؤلف يباري الآخر في ضخامة كتابه!

وشرعت سلوى تقرأ في فصل "الكهربائية"، فلم تستطع أن تفهم شيئاً. كان ذهنها يشرد عن الكتاب باستمرار. وكررت قراءة بعض العبارات فلم تفهم معانيها. واجتاحها فجأة شعور أليم بالتعاسة، وبدا لها بشكل واضح أنها إنسانة شقية. هل سيتبدد شبابها على هذا النحو؟! ستظل أعواماً عديدة أسيرة الدراسة والامتحانات. وقد امتحنت في "الجبر" قبل أسبوع، وستمتحن في "اللغة الإنجليزية" بعد ثلاثة أيام، وعليها أن تستعد منذ الآن للامتحان العام. متى ستتخلص من الدروس والامتحانات، متى؟ ليتها تغمض عينيها وتفتحهما فتجد موعد العطلة الكبيرة قد حان.

أسندت سلوى مرفقيها إلى المنضدة وتاهت أنظارها في الأفق البعيد. لقد اقبل الصيف وهي لم تتأهب له بعد. وعليها أن تقضي ما تبقى من السنة الدراسية بملابس السنة الماضية. فليس لديها الوقت الكافي لشراء أقمشة جديدة وخياطتها قبل حلول العطلة الكبيرة. ولن تتقيّد هذه المرة بآراء أمها الرجعية، بل ستخيط ملابسها كما تشاء. فليس في وسع أمها أن تتصور أن الفساتين المغلقة تجعل منظر الفتاة كريهاً. لا بد أن يكون الفستان الصيفي في مدينة كبغداد بدون أكمام، ولا بد أن تكون فتحة الظهر والصدر واسعة، وأي بأس في هذا؟! لو كان لحرّ بغداد مثيل في أوروبا لسارت النساء في الشوارع عرايا. إن أمها لا يمكنها تقبل هذا المنطق. وأنّى لها ذلك وهي من نساء الجيل القديم؟ كلا، إنها لن تخضع لمشيئتها بعد الآن، فهي لا تزال تعيش في عقلية القرن الماضي. وستضرب بأوامرها عرض الحائط حينما تحلّ العطلة. لن تظل حبيسة الدار لا تخرج في النهار إلا لزيارة صديقاتها، ولا يجوز لها أن تتمشى في شارع الرشيد أو شارع النهر لتتفرج على الناس وعلى مخازن البضائع النسائية. ولن تطيع أوامرها بالذهاب إلى السينما مرة واحدة في الأسبوع، وبصحبة إحدى صديقاتها. فما الداعي إلى هذه الأحكام؟ ولماذا لا يجوز لها أن تذهب أكثر من مرّة في الأسبوع، بمفردها أو بصحبة شاب؟ فصابر مثلاً يذوب شوقاً إلى مرافقتها يوماً إلى "السينما"، لكن افتخار أفهمته أن أمها لا توافق على ذلك أبداً، مع أنها تتوق إلى ذلك من كل قلبها. فصابر إنسان رقيق للغاية، وهو يبذل كل ما في قدرته لإدخال السرور على قلبها. وقد التقى بها مرة، هي وافتخار، وهما على أبواب

"سينما روكسي" فقطع لهما تذكرتين على حسابه، واشترى لهما كمية عظيمة من الفستق واللوز. ولم يجلس بجوارهما رغم لهفته الشديدة لذلك، وجلس في صف وراءهما، فما معنى هذه القيود السخيفة؟

وعادت صورة صلاح وصابر تلحان على ذهنها. حقاً إنها لا تقدر أن تفضل أحدهما على الآخر لو خيّرت بينهما، فلكل منهما ميزات تحبها ولا تتوفر للآخر. فصلاح رغم خشونته ذو رجولة قوية وشخصية طاغية. وصابر رغم أنفه الكبير ذو لطف متناه ورقة فياضة. لكنها لا تستطيع أن تعيش مع أي واحد منهما. ولو كان لصلاح لطف صابر، أو لو كان لصابر رجولة صلاح لأمكن أن تحب أحدهما. لكنها موقنة أنها ستلتقي يوماً بشاب يجمع صفات الإثنين. ربما التقت بذلك الشاب في شارع الرشيد، أو في "الباص" أو في "السينما". وكم مرة وقعت أنظارها في "الباص" على نموذج للشاب الذي تفضله. ولقد حدث لها مراراً وهي جالسة في "السينما" أن شعرت بقوة تجذبها إلى وجه شاب من بين مئات الوجوه. وقد تتبادل معه نظرات إعجاب، ثم لا يلبث أن يختفي من أفق حياتها حالما تغادر دار "السينما". ولم يحدث لها أبداً أن التقت مرة ثانية بأحد أولئك الشبان الذين أعجبوها. وكيف تلتقي بهم ثانية وهي تحيا هذه الحياة الضيقة الحبيسة التي تشابه حياة السجينات؟!

وتجمعت سحب الكآبة مرة أخرى في أفقها، لكن نبعاً فواراً من البهجة تفجر في أعماقها لبدد تلك السحب. ستلتقي بذلك الشاب في يوم من الأيام حتماً. وسيحبها من كل قلبه ولا يفضل عليها أية امرأة في الدنيا. وسيعاملها برقة صابر، ولن يطالبها كصلاح بقراءة الكتب الجافة.

وسيسمح لها بالتنزه كل يوم في شارع الرشيد وشارع النهر لتتفرج على مخازن البضاعة والناس. ولن يعارض في خياطة فساتينها بدون أكمام، وبفتحات واسعة للصدر والظهر. وسيصحبها كل مساء إلى "السينما" فتستمتع بجوّها المرح المشبع بالموسيقى واللفتات والنظرات. وسيسمح لها بشراء كل اسطوانات فريد الأطرش وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ. وستتصرف على هواها لا يمنعها أحد ولا يلومها أحد.

وامتلأ قلب سلوى بنشوة عميقة، وغمرتها سعادة فياضة. وكانت الشمس قد توارت وراء النخيل البعيدة مخلفة وراءها غيوماً صفر. وانعكست الأشعة الغاربة على محيّاها المشرق فبدا ذا جمال أخّاذ. وكانت نسمات خفيفة تهب عبر الشرفة فتداعب خصلات شعرها الكستنائي المتدلية على جبينها.

ليلة سوداء

بدت الأزقة الضيقة الملتوية صامتة لا أثر فيها للحياة. ولاحت الأعمدة الكهربائية الصدئة في النور الخافت كأشباح مخيفة. وسرى حمادة مسرعاً دون أن يتلفّت حواليه. ولم تقع عيناه على إنسان سوى حارسين كان أحدهما متجمعاً على نفسه في عطفة صغيرة وقد غطّ في النوم، وكان الثاني مختبئاً في دهليز بيت قديم. ولم يلمح أي كلب أو قط ينبش في فضلات الأطعمة وأكوام الأقذار المنبثة في زوايا الأزقة.

أسلمه "زقاق السمّاكة" إلى شارع البلدة الرئيسي فاستقبله هواء قارس يهب من النهر. التفّ بسترته وأسرع الخطو وهو يفكر في الطريقة التي يقنع بها الدكتورة سلمى بمرافقته إلى البيت. من المحتمل أن تطرده حالما تراه. وربما طالبته بالأجر المتبقي عليه من زيارته السابقة. وماذا سيقول لها لو فعلت؟ ليس في كيسه سوى دينارين، وكان ينوي إعطاءهما إلى الحاجة صبورة، لكنه لن يعطيها شيئاً الآن. وماذا فعلت لنعيمة؟ إنها تقاسي منذ ساعات الصباح الأولى ولا أثر للوليد. وإذا لم تنجدها الدكتورة سلمى فالله الساتر. لا بد أن يقنع الدكتورة. سيشرح لها خطورة حالتها وربما لان قلبها. ولِمَ لا يكذب عليها؟ لِمَ لا يزعم لها أنه يملك أجرها حتى إذا ولّدت نعيمة أعطاها ما عنده؟ تساقطت على وجهه قطرات المطر، فرفع رأسه إلى السماء فإذا بها قطعة سوداء لا أثر فيها للنور.

بلغ منزل الدكتورة سلمى فوقف تحت شرفته متردداً. وعاوده الخوف والقلق. ومثل جسم الدكتورة الضخم ووجهها السمين في ذهنه فازداد يأساً. تقدم من الباب وضغط الجرس فرنّ رنيناً قصيراً. وانتظر دقائق بقلب واجف فلم يردّ أحد. وكرر الضغط على الزرّ فتساءل صوت بعيد: من؟

هتف مرتعش الصوت: أنا.. مريض.

انفرج الباب وظهر خادم الدكتورة الكهل. قال حمادة في استعطاف: الله يرحم موتاك، صحّ الدكتورة. عندي مريض حالته خطرة.

قاده الخادم إلى الصالة وقال: اجلس هنا.

واختفى الخادم، فجلس حمادة على أحد مقاعد الصالة لكنه أحسّ بوخز كاللهب يتوقّد تحته، فعاد إلى الوقوف. ومرّت دقائق حسبها دهراً، ثم بانت الدكتورة وقد تدثّرت بروب أبيض اللون. كان شعرها الأسود المنفوش يتناثر حول وجهها المقبّب، وكانت عيناها لا تزالان مغلقتين نصف إغلاقة. قالت وهي تتلفت حواليها متثائبة: أين المريضة؟

أجاب حمادة: هي امرأتي يا دكتورة، تعسرّت ولادتها منذ الصباح.

تساءلت الدكتورة وهي تتثاءب: ولماذا لم تجيء إلي قبل الآن؟

فلزم حمادة الصمت. قالت الدكتورة وهي تستدير بجسدها الضخم: انتظر قليلاً.

ووضعت قدماً خارج الصالة، لكنها استدارت نحوه فجأة وتفرّست في وجهه، ثم تساءلت: ألم تُحضر إليّ زوجتك من قبل؟!

تلفت حماده حواليه في ارتباك. قالت الدكتورة في خشونة: اسمع. أنا أتقاضى عن هذه الحالات عشرة دنانير. هل معك هذا المبلغ؟

ابتلع حمادة ريقه، ونقل نظراته الحائرة بينها وبين الخادم، ولم يجب. قالت الدكتورة في غضب وهي تتهيأ للانصراف: ما معنى هذا؟ هل تتصورون أن من واجب الدكاترة أن يشتغلوا مجاناً لوجه الله؟! في المرة السابقة قطعت نصف الأجر، وفي هذه المرة توقظني في منتصف الليل وتريد أن أعالج امرأتك بلا أجر!

وغادرت الصالة وهي تغمغم: سخفاء. حمقى.

لبث حمادة جامداً في موضعه وعيناه مثبتتان على باب الصالة. وسمع الخادم يقول: اذهب إلى الدكتور سامي في الشارع المجاور. إنه اختصاصي في التوليد أيضاً.

خرج حمادة يجرّ قدميه جرّاً. ومكث دقائق واقفاً تحت شرفة المنزل وأنظاره مصلوبة على باب الدار. كان يتوقع أن يخرج الخادم إليه ويستدعيه، لكن انتظاره طال والصمت جاثم حوله. وانطفأ النور في نوافذ البيت وغرق في الظلام.

سار حمادة في الشارع متلكئاً. كان عليه أن يقترض من أحد زملائه النحاسين بعض النقود صباح هذا اليوم. ولو فعل ما طردته الدكتورة. والآن ماذا سيفعل؟!

ومض البرق وأضاء الشارع بنور ساطع، وأعقبه رعد قاصف، وتطلع إلى السماء فإذا الظلام مطبق عليها. وبدت صفحتها كالحة كئيبة. إنه لا يستطيع أن يذهب إلى الدكتور سامي، حتى لو كان مصير نعيمة

ومصير طفله البكر موكولين به. كيف يسمح لرجل أن يولد زوجتــه؟! إن شرفه أثمن من حياة نعيمة وحياة ولده وحياة أي إنسان.

واشتد انهمار المطر، وابتلّ "يشماغه"، وسالت قطرات المطر على رأسه. ومشى متلكئاً.. إن الدكتور سامي طبيب على أية حال؛ وجميع الناس يقولون إن أمر الطبيب غير أمر الرجل الاعتيادي. وهم يقضون أعمارهم في الدراسة ليقوموا بمثل هذه الأعمال. ولو كانت مخلّة بشرف الناس ما أتعبوا أنفسهم بدراستها. وقبل أسابيع اضطر يحيى الصفّار إلى نقل زوجته إلى المستشفى وقام أحد الأطباء بعملية لها.

انعطفت قدماه في الشارع المجاور، وتوقف أمام منزل الدكتور سامي. كان ثمة شعور أليم يمزق قلبه. وامتدت يده إلى مدقّة الباب، وأطلّ رأس امرأة من نافذة علوية، وتساءل صوت ناعم: مَن؟

هتف حمادة: أنا خاتون. أريد الدكتور. تعسرت ولادة امرأتي.

غابت المرأة دقائق خيّل لحمادة أنها ساعات، ثم ظهرت ثانية وقالت: الدكتور مسافر.

قال حمادة متوسلاً: والله تركتها في حالة خطرة يا خاتون.

فكرت المرأة برهة ثم توارت ثانية. وعادت بعد دقائق وقالت: اذهب بها إلى المستشفى فسيعالجونها هناك.

واختفى رأسها وأغلقت النافذة، ومكث حمادة مسمّراً في موضعه. إلى أين يولّي وجهه؟ سار في الشارع يقتلع قدميه اقتلاعاً. وانهمر المطر فوقه كالسيل، والتصق قميصه بجسده، وامتلأ حذاؤه بالمياه. ربما كان

نقَل نعيمة إلى المستشفى بعربة سهلاً. ولكن أين يجد العربة في مثل هذه الساعة؟

وتذكر بيت الحوذي في البستان الواقع وراء زقاق "السماكة". لقد رأى عربتة في البستان مراراً وهو عائد إلى البيت ليلاً، ولا بد أنها هناك الآن.

هرول في الأزقة الموحلة وقدماه تنزلقان بين حين وآخر فيكاد يهوي على الأرض. ولم يتوقف حتى بلغ البستان وقد ابتلت ملابسه كلياً. وغمره سرور فيّاض حينما لمح في نور البرق الخاطف شبح العربة في ركن من البستان المهجور. تقدم نحو منزل الحوذي يسير حذراً، وغاصت قدماه في الوحل. وتحسّس مدق الباب حتى أمسك به، ثم انهال عليه قرعاً. وتساءل صوت من داخل الدار: مَن؟

صاح حمادة بأعلى صوته: أنا، أسطى.

اقتربت سعلات متواصلة من الباب، ثم فتح وظهر إنسان صغير الحجم محنيّ الظهر، وتساءل في استغراب: مَن هذا الذي يترك بيته في مثل هذه الساعة؟

وومض البرق فبرز لحمادة وجه الحوذي العجوز بلحيته الكثة. قال في ضراعة: رحمة الله على موتاك يا أسطى، أعدّ العربة. تعسرّت ولادة امرأتي منذ الصباح، ولا بد أن أنقلها إلى المستشفى.

تساءل الحوذي: أما يمكنك الانتظار حتى الصباح؟

فقال حمادة: هي في حالة خطرة، وربما تموت إن لم أذهب بها الآن إلى المستشفى.

صمت الحوذي لحظة ثم قال: ولكن الجو لا يصلح لسير العربة. وقد تتزحلق الخيل وتتكسر أرجلها.

قال حمادة متضرعاً: وحقّ كل عزيز لديك، لا تخيّبني لا خيّبك الله.

صمت الحوذي مرة أخرى مفكراً، ثم هز رأسه وقال: أمري إلى الله.

اختفى في المنزل برهة، ثم خرج ثانية وهو يقود زوج الخيل. وانهمك في شدّهما إلى العربة وهو يغمغم: ليس هناك حوذي يخرج بعربته في مثل هذا الجوّ إلاّ المجنون. قد ينزلق الحصان وتتكسر رجله.

درجت بهما العربة أخيراً وهي تجرّ نفسها جرّاً. وكانت الخيل تقتلع أرجلها من الطين بصعوبة. بلغت العربة المنزل فانحدر عنها حمادة. دقّ باب الدار ثم دخل وهو يردّد: يا ألله.

اشتد خفقان قلبه وهو يجتاز الدهليز. وتناهت إليه تأوهات نعيمة مختلطة بأصوات نسوة الجيران وهن يرددن في نغمة واحدة: علي. علي. علي. استعيني بـ "أبو الحسن". استعيني بحلاّل المشاكل.

واستوى وراء باب الغرفة وهتف: حجية صبورة. سآخذ نعيمة إلى المستشفى. هيئيها بسرعة.

فصاحت الحاجة صبورة بامتعاض: تأخذها إلى المستشفى وهي في هذه الحال؟ أتريد أن تقتلها؟

قال حمادة: لا شأن لك بهذا. سآخذها الآن إلى المستشفى أحسن من أن تموت بين يديك.

وترامى إلى حمادة لغط النسوة وقد ساءهن قراره فلم يكترث لهن. وهرع إلى غرفته وغيّر ملابسه المبتلة بعجلة، ثم خبط على جدار الغرفة المجاورة وصاح: حجية صبورة، هل انتهيت؟

فصاحت الحاجة صبورة: تعال، خذها. تعال اقتل المسكينة.

تقدم نحو الغرفة المجاورة خافق القلب. كانت نسوة الجيران الثلاث محيطات بنعيمة وهن متلفعات بعباءاتهن. وابتدرته إحداهن قائلة: هذا شيء غير معقول يا (أبو غائب). نعيمة ليست في حالة تمكنها من الذهاب إلى المستشفى.

وقالت امرأة ثانية: كيف تخرجها وهي في هذه الحال، وفي مثل هذا البرد والمطر؟

قال حمادة بلهجة جازمة: لا شأن لأحد بهذا. ستموت لو بقيت بين أيديكم.

فقالت الحاجة صبورة: دعوه يأخذها إلى المستشفى. سيرى ماذا يفعلون لها هناك. لن يجيء الوليد حتى يشاء الله.

أقبل حمادة على نعيمة باسماً. وكانت نعيمة متمددة على فراش وقد عصبت رأسها بعصابة بيضاء. قالت بصوت خائر وهي تحاول النهوض: سأموت يا حمادة.. سأموت.

قال حمادة برقّة وهو يساعدها على النهوض: توكلي على الله يا نعيمة. توكلي على الله.

تأوّهت نعيمة وهي تستند إلى ذراعه وقالت متوجعة: سأموت في الطريق يا حمادة، أنا أدري أنني سأموت.

وعاد حمادة يردد: توكلي على الله يا نعيمة. توكلي على الله.

قادها حمادة إلى العربة فتسلقتها بصعوبة وتهالكت في داخلها وهي تئن. وأسندها حمادة إلى صدره. تحركت العربة ببطء، وخاضت في الأوحال بصعوبة. كانت سيول المطر تنهمر متدفقة كأن أبواب السماء قد فتحت على مصراعيها. وكان الحوذي العجوز يتمتم طوال الوقت بكلمات غير مفهومة ويفرقع بسوطه في الهواء.

وقطعت العربة أكثر من نصف الطريق، وخرجت من الأزقة الضيقة إلى شارع البلدة الرئيسي. وكانت المياه والأوحال قد ملأت الشارع وكوّنت فيه بركاً عظيمة. وأسرعت الخيل في جريها، واندفعت العربة وهي تهتز بقوة. وفجأة حدث صوت احتكاك عنيف وهوى زوج الخيل في المياه. وقفز الحوذي إلى الأرض مولولاً: يا رب لطفك.. يا رب لطفك.

جثا الحوذي على الأرض يفحص زوج الخيل ثم ضرب رأسه بجمعه وهتف بصوت باك: ويلي عليّ. ويلي عليّ.

ووقف حمادة مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل. وكان أنين نعيمة يعلو لحظة بعد أخرى، فالتفت إليه الحوذي وقال: خذ امرأتك يا عمي واذهب بها إلى المستشفى.. واتركني. الله كتب لي هذه المصيبة.

فقال حمادة: عمي، هذه كلها أقدار. سأحمل امرأتي على ظهري والله في عوني وعونك.

والتفت إلى نعيمة قائلاً: توكلي على الله يا نعيمة، توكلي على الله. سأحملك على ظهري.

قالت نعيمة جزعة: ولكنني سأموت في الطريق يا حمادة. كيف يمكنك أن توصلني؟

قال حمادة وهو يثني ركبتيه بجوار العربة: توكلي على الله يا نعيمة، توكلي على الله.

شبكت نعيمة ذراعيها حول عنقه، وساعده الحوذي على النهوض، فاستوى على قدميه. وتأرجح حمله لحظة ثم مشى ببطء وهو يتلمس مواضع قدميه. واشتد إحساسه بثقل حمله لحظة بعد أخرى، لكنه عضّ على "يشماغه" لئلا يفلت منه أي صوت. وكان يرفع رأسه إلى نعيمة بين حين وآخر متسائلاً: كيف حالك يا نعيمة؟

فتردّ عليه نعيمة في صوت خائر: الحمد لله.

وصفعت الرياح وجهيهما بقوة. وابتلّت عباءة نعيمة وسحّت المياه منها على وجه حمادة، ثم تسربت إلى صدره، ثم ظهرت على ساقيه العاريتين. وارتعش جسد نعيمة فوق ظهره، وتصيدت أذناه آهاتها المكتومة. وفجأة صكّت سمعه صرخة حادة فتوقف عن السير وتساءل مرعوباً: ماذا بك يا نعيمة؟

قالت نعيمة وهي تحاول عبثاً كتم تأوهاتها: أنزلني هنا يا حمادة، أنزلني. سيميتني وجع ظهري.

فخطا نحو شرفة قريبة ووقف تحتها، ثم ثنى ركبتيه فانحدرت نعيمة بصعوبة عن عاتقه. ونظر إليها متضرعاً وقال: لم يبق إلاّ القليل يا نعيمة. توكلي على الله. بعد قليل نصل إلى المستشفى.

انطرحت نعيمة على عتبة المنزل وهي تئن وتتلوى. وسحّت المياه من عباءتها وملابسها وسالت في مجار صغيرة على عتبة الدار، ثم تجمعت في بركة على الأرض.

قالت وهي تعضّ على شفتيها وتتلوّى: لن أصل إلى المستشفى يا حمادة. سأموت هنا. عيني حمادة، أنا لا أريد ان أموت، هل ستتزوج غيري يا حمادة؟

قال حمادة بصوت مرتعش: توكلي على الله يا نعيمة. توكلي على الله ومحمد وعلي.

انهمرت دموعها، وراحت تبكي متوجعة وتضغط على بطنها متأودة. وانتصب حمادة بجوارها يتطلع إليها تارة ويتلفت حواليه تارة أخرى وهو لا يدري ماذا يفعل. كان متعباً، متوجعاً، قد أمضّه البرد، لكن الهمّ أذهله عن كل شيء. ثم لاح له أن هذا الكابوس سيرتفع عن صدره حالما يصل إلى المستشفى. فقال مختلج الصوت وعيناه تتضرعان إلى نعيمة: توكلي على الله ودعيني أحملك يا نعيمة. لم يبق من الطريق شيء، سيؤذيك البرد إن بقيت جالسة هنا والمياه تقطر من ملابسك.

همست نعيمة أخيراً: احملني برفق ولا تحركني، أخاف أن يميتني الألم. أنا لا أريد أن أموت يا حمادة، أريد أن أري ولدي.

قال حمادة وهو يتقدم لحملها: توكلي على الله يا نعيمة، توكلي على الله.

حملها بحذر واستأنف سيره البطيء. وعادت الرياح تصفع وجهيهما وسيول المطر تنصب فوقهما. وتحول الشارع الرئيسي إلى نهير صغير،

فخلع حمادة حذاءه وراح يخوض المياه حافي القدمين. وكانت المياه تسحُّ باستمرار من عباءة نعيمة على وجهه وتكاد تحجب الطريق عن عينيه. وكان التعب قد أنهكه، والصداع قد شتّت ذهنه. وتراءى له أن الطريق لن ينتهي أبداً، وأن النهار لن يطلع، وأنه سيظل يخوض الأوحال في وحشة الليل وقسوة الريح والبرد بقية عمره!

انبعثت فجأة صيحات الاستغاثة من نعيمة ممزقة وحشة الليل، وأخذت تردد وهي تبكي: متى نصل يا حمادة، متى؟

وفقد حمادة الأمل في الوصول بسلام، لكنه ظلّ يجيبها مشجعاً "توكلي على الله يا نعيمة، توكلي على الله". وظلت قدماه تخطوان إلى الأمام في يأس محموم. لاحت لعينيه بناية المستشفى أخيراً فتسمّر في مكانه كالمصعوق، وصرخ غير متمالك نفسه: وصلنا يا نعيمة، وصلنا.

كان الصمت يخيّم على بناية المستشفى، وكان ثمة نور شاحب يتهافت من وراء النوافذ. وانحدرت نعيمة عن كتفي حمادة وجسدها يرتعش بشدة والمياه تقطر من ملابسها. وجلست القرفصاء في المدخل وهمست: الحقني بالطبيب يا حمادة، الحقني بالطبيب.

هرول حمادة في أروقة المستشفى على غير هدى. كانت وحشة قاتمة تسود المكان، ولم يكن ثمة أثر لإنسان. وفتر حماسه شيئاً فشيئاً وغاض السرور من قلبه. توقف عن سيره برهة، وتلفّت حواليه حائراً. ثم عاد يذرع الأروقة في لهفة. ولاح لعينيه شبح يرتدي البياض فهرع نحوه وسأله: خوية، أين الدكتور؟ أريد أن يرى امرأتي. تعسّرت ولادتها منذ الصباح.

سأله الممرض: وأين هي الآن؟

قال وهو يتقدمه في السير: هنا في المستشفى، تعال معي لتراها.

ألقى الممرض على نعيمة نظرة فاحصة ثم قال وهو ينصرف عجلاً: سأخبر رئيسة الممرضات.

وطالت غيبة الممرض، واشتدت الآلام بنعيمة. همست أخيراً في لوعة: لماذا لم تدعني أموت في بيتي يا حمادة؟

ولزم حمادة الصمت. كان ينتصب إلى جوارها وهو يلتهب غيظاً. ولم يجرؤ على الكلام. خيّل إليه أن أية كلمة تنبعث من بين شفتيه قد تزيد من آلام نعيمة. وأخيراً حضر الممرض بصحبة شابة ممشوقة القوام. وألقت الشابة على نعيمة نظرة سريعة وقالت للمرض: أنقلوها إلى غرفة العمليات.

اختفى الممرض دقائق ثم حضر بصحبة ممرض آخر ومعهما محفة، وحملا نعيمة إلى غرفة العمليات. فتبعهما حمادة وقد استولى عليه وجل شديد. وحضر الطبيب بصحبة الممرضة وغابا في غرفة العمليات. وبعد دقائق خرج الطبيب وسار متباطئاً حتى اختفى في رأس الرواق. ثم خرجت الممرضة في أعقابه فتبعها حمادة خافق القلب. قال متضرعاً: سستر، هل ستلد الآن؟

أجابت الممرضة دون أن تتوقف عن سيرها: الطبيب الخفر لا يتمكن من إجراء العملية، وسيخابر الطبيب المختص ليأتي ويفحصها بنفسه.

فهتف حمادة غير متمالك نفسه: كيف يتركها في هذه الحال حتى يأتي الطبيب المختص؟! إنها تتعذب منذ الصباح، وقد تموت في أية دقيقة.

هزّت الممرضة كتفيها وقالت بفتور: وماذا يعمل لها؟

ثم واصلت سيرها حتى توارت عن أنظاره. جرّ حمادة قدميه عائداً إلى غرفة العمليات. وألصق أذنه على شقّ الباب وأنصت بكل جوارحه. وخيّل إليه أن نعيمة تناديه مستغيثة فانتفض كالملدوغ. ودفع الباب بكل قوته فلم ينفتح، فهرع إلى رأس الرواق ومدّ بصره في الفناء فلم يرَ أحداً. فرجع إلى غرفة العمليات وحيرة مرّة تضطرم في صدره. وطفق يهمس جزعاً: يا رب الرحمة. يا رب الرحمة. يا رب الرحمة.

ولم يدرِ ماذا يفعل. وإذ هو ملصق أذنه على الباب فُتح وظهر الممرض، ثم أغلق بسرعة. فاعترض طريق الممرض وساله: أخويه، من فضلك، متى يجيء الطبيب المختص؟

أجاب الممرض: والله يا أخي، لا أدري.

تساءل حمادة في صوت فيه رنّة بكاء: لماذا لا يعالجها الطبيب الخفر؟!

فهزّ الممرض رأسه ولم يتكلم. قال حمادة في مرارة وقد ألهب اليأس وجهه: ربما ماتت قبل أن يأتي الطبيب المختص.

ففكر الممرض برهة ثم قال: اذهب إلى الطبيب الخفر واساله أن يجري العملية على مسؤوليتك.

قال حمادة: دلّني على مكانه رحمة الله على أمواتك.

قاده الممرّض إلى غرفة في أقصى الممر ذات باب نصفها من الزجاج السميك. ووقف حمادة أمامها متردداً. نقر الباب ومرت دقائق ثم فتح وظهر الطبيب. تساءل: نعم؟

قال حمادة بصوت متلعثم: امرأتي يا مولاي.. تعسرت ولادتها منذ الصباح.

فقال الطبيب: انا لا أستطيع عمل شيء.

تساءل حمادة: ألا يمكنك أن تجري العملية بنفسك يا مولاي رحمة الله على أمواتك؟!

أجاب الطبيب بلهجة جازمة: هذا أمر غير ممكن.

فهوى حمادة على يده يحاول تقبيلها، لكن الطبيب سحب يده وقال بلهجة قاطعة: أرجوك.. لا تحرجني.

وأطبق في وجهه الباب. جرّ حمادة قدميه وتهاوى بجوار غرفة العمليات. وهجم عليه فجأة البرد والإعياء، وخيّل إليه أنه كان طيلة هذه الساعات عرضة لضربات عشرات الهراوات. وتخيّل أن ثمة بحاراً شاسعة تفصل بينه وبين نعيمة وأنه عاجز عن اجتياز تلك البحار. وغشيه رويداً، رويداً، يأس دبّ في جسده كالمخدّر، فاستسلم للخمول. وتسللت أنوار الفجر عبر نوافذ المستشفى واختلطت بأنوار المصابيح. ولم يعد حمادة يفكر بنعيمة أو بالطبيب الخفر أو بالطبيب المختص. كان يحاول باستمرار أن ينتزع نفسه من هذا الجمود، لكن رأسه ظل يسقط على ركبتيه بعناد. ثم فزّ على هزات قوية عنيفة فرأى الممرض يقف أمامه. كان وجهه العابس ينبيء بالشرّ. قفز على قدميه وهتف مبهوراً: كيف حال امرأتي رحمة الله على موتاك؟

قال الممرض ببطء: البقيّة في حياتك.

شعر حمادة بالأرض تميد به واستند إلى الجدار لحظات، ثم أحسّ فجأة بالنار تتلظّى في أعماقه، واسْوَدّ كل شيء في عينيه. هجم على الرجل الماثل أمامه وقبض على عنقه وزمجر صارخاً: ماذا فعلتم بامرأتي يا مجرمين؟ ماذا فعلتم بامرأتي؟

وتعالت استغاثة الممرض، وتراكض الممرضون لنجدته، وخارت قوى حمادة ثانية واختلطت في عينيه الصور.

فتاة المرقص

قال فتحي: سأصحبك إلى مرقص تتمرن فيه كما تحب يا علي.

ـ هيا بنا.

وانطلقنا معاً. تركنا "الترام" في محطة "باب الحديد"، واخترقنا الميدان، وانعطفنا في شارع جانبي، ثم توقف فتحي أمام عمارة قديمة. دلفنا إلى مدخلها المعتم، وارتقينا سلّماً قذراً أسلمنا إلى ممر واسع في الدور الأول. وفي أقصى الممر لاح باب مفتوح على مصراعيه تنبعث منه أنغام راقصة.

كان المرقص حافلاً بالروّاد، وكانت سحب الدخان تتكاثف قرب السقف وحول المصابيح، وضحكات النساء تشيع جوّاً خليعاً، وجلبة الحاضرين تملأ السمع. قال فتحي: أرنا همّتك يا بطل.

واختفى مسرعاً في زحمة الراقصين. انتبذت موضعاً منزوياً، ودارت عيناي متفحّصتين القاعة الفسيحة. كان أثاث المكان يعلن عن حقارته.. المقاعد القديمة المصفوفة حول الجدران، "البار" المتآكل المنزوي في ركن من أركان القاعة، و"الجرامفون" الهرم المتواري عن الأنظار. وكرهت المرقص، كرهت وجودي فيه. كان ثمة شيء قذر في هوائه المشبع بالدخان، في فتياته المتزوقات بتبذل، في رقص زبائنه المجرد من الاحتشام. انقطعت الموسيقى وتفرّق الراقصون وأقبل فتحي يشقّ طريقه نحوي. وبادرني متسائلاً: كيف الحال؟

ـ هذه دعابة سخيفة يا فتحي. إنك أتلفت عليّ الأمسية في هذا المرقص الحقير.

ـ لا. لا تبالغ يا علي. صحيح أنه ليس من المراقص الراقية لكنك تستطيع أن تتمرن فيه قدر ما تشاء. هذا بالإضافة إلى وجود بعض الوجوه الجميلة.

ـ وأين الوجوه الجميلة؟ أنا أتحداك أن تدلني على وجه واحد فقط.

ـ واحد؟! ما أسهل هذا. تعال معي.

كانت الموسيقى قد صدحت من جديد، وكان الراقصون يتخلعون في حركاتهم المبتذلة. اخترقنا حشدهم ووقفنا في موضع قرب الباب. وطافت عينا فتحي في حلبة الرقص، ثم لكزني بكوعه وهو يشير بعينيه إلى فتاة دنت منا، وتساءل: ما رأيك في هذه؟

وابتعدت الفتاة عنا سريعاً فلم ألمح فيها جمالاً خاصاً. قلت في غير حماسة: لا بأس بها.

فهتف باستنكار: لا بأس بها! يا أخي قل رائعة. أتدفع ثمناً للوصف؟!

ـ رائعة أو غير رائعة، أنا خارج يا فتحي. لا أتحمل البقاء مدة أطول في هذا المكان.

ـ صبراً. صبراً يا علي. خمس دقائق فقط. رقصة أخرى معها ثم نخرج.

قال ذلك وعيناه ما تنفكان تلاحقان الفتاة. ثم التفت إليّ وأضاف: اسمع يا علي. سلها الرقصة التالية وسأدعوها أنا بعدك ثم نخرج. ما رأيك؟

- أوافق على أن تفي بعهدك.

صمتت الموسيقى فحنت الفتاة رأسها لرفيقها، واتجهت إلى مقعد منعزل وجلست في احتشام. ثم عزفت اسطوانة جديدة فدعوتها إلى الرقص. وما كدت أتوسط الحلبة حتى عراني الارتباك وتخبطت قدماي، وعجزت عن ضبطهما على وقع الموسيقى. وتوقعت أن تتركني رفيقتي بين لحظة وأخرى وتعود إلى مقعدها غاضبة. لكنها جعلت تربّت على ذراعي في كل خطوة لتقود قدميّ على ضربات اللحن، ولم ألبث حتى وجدتني أرقص بثقة واطمئنان. وزايلني الإحساس بالنفور. وخلفه شعور بالغبطة والارتياح. واعترفت وأنا أختلس النظرات من وجهها أن فتحي محقّ في إعجابه. إنها رائعة حقاً.. رائعة بعينيها الرماديتين الواسعتين ذات الأهداب الطويلة، بوجهها البيضوي ذي البشرة الشمعية الصافية، بشعرها الكستنائي الطويل المسترسل على كتفيها. وألفيتني أحاذر طيلة الوقت أن يمسَ صدري صدرها، وأن تضغط يدي على خصرها. كان ثمة شيء طاهر. رقيق فيها. يثير في القلب إعجاباً خالصاً. وشعرت بأسف بالغ حينما سكتت الموسيقى وانتهت الرقصة. وعدت إلى فتحي تتوزعني الغبطة والحسرة.

صدحت اسطوانة جديدة فهرع فتحي إلى الفتاة قبل أن يسبقه شخص آخر، ووقفت أراقبهما من بعيد ومشاعر النشوة ما تزال تفعم قلبي. وتمثلت لي نظراتها الفارغة وهي تراقصني وخيّل إليّ أنها تطوي تعاسة مرّة. وتلفت حواليّ أتأمل المرقص وزبائنه، فعاودني الشعور بالاشمئزاز والنفور وتملّكني الانقباض. وتمنيت من أعماقي أن تنتهي الرقصة.

توقفت الموسيقى فاقبل عليّ فتحي عابس الوجه وقال: هيا نخرج.

استقبلنا الهواء المنعش خارج البناية فتنفست الصعداء كأن عبئاً ثقيلاً رفع عن كاهلي. التفت إليّ فتحي بعد صمت وقال: أنت محقّ يا علي، هذا المرقص حقير جداً.

- وهل يحتاج هذا إلى كلام؟

فأضاف وكأنه يحدث نفسه: وليس هناك أمل في الظفر بها. وخير لي أن أهجر هذا المرقص السخيف.

- الظفر بمن؟

- بدريّة التي رقصنا معها الآن. يظهر أن محاولاتي معها لن تثمر.

- لا أدري كيف تحتمل جوّ هذا المرقص من أجلها أو من أجل غيرها. أما أنا فهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أزوره.

•••

كنت واثقاً أن قراري في مقاطعة ذلك المرقص حاسماً. وحينما خالجتني الرغبة بعد أيام في زيارة مرقص أخذت استعرض في ذهني المراقص التي أعرفها، واستقر عزمي على ارتياد أحدها. ولست أدري كيف انساقت قدماي إلى "باب الحديد". ووجدتني واقفاً أمام العمارة القديمة والحيرة تعصف بي. ثم ارتقيت السلّم القذر بتثاقل ومشاعر الضيق تصطرع في صدري. وتسمّرت بجوار الباب. خيّل إليّ أن عيون الجميع اتجهت نحوي في تساؤل ساخر. وتصبب العرق من جبيني، وألح على ذهني سؤال عنيد "كيف حدث هذا؟!"

لكن الموسيقى استمرت في أنغامها الصاخبة، وضحكات النساء الخليعة ظلت تتردد في القاعة، والراقصون لم ينقطعوا عن رقصهم المبتذل. وعاودني هدوئي شيئاً فشيئاً، وتسللت بين جوانحي مشاعر الاستهانة وعدم المبالاة. وبحثت عيناي عن درية حتى استقرتا عليها وهي منتبذة مجلسها المختار، فشققت طريقي بين الراقصين واخترت موضعاً قريباً منها. وخفقت في قلبي وأنا أتأملها مشاعر رقيقة حنون. كان ذلك التعبير الطاهر النقيّ يحيطها بجوّ فريد. وبدا لي أن وجودها في مثل هذا المرقص أمر شاذ، كوجود مصلّى في حانة!

تتابعت الأنغام، وظل الراقصون يتسابقون في دعوتها. كانت تلبي دعواتهم بهيئة آلية، وتراقصهم كدمية متحركة، ثم ترجع إلى مقعدها بخطواتها الموزونة ومظهرها المحتشم. ولم تداخلني رغبة في مراقصتها. كنت مغتبطاً بمراقبتها من بعيد وإن شابت غبطتي كآبة مبهمة.

وغدوت زبوناً لمرقص "مولان روج" منذ تلك الليلة. كنت أحرص على زيارته مرتين في الأسبوع. وكان برنامجي لا يتغيّر.. اختيار مقعد بقرب مجلس درية، واستيفاء الرقصات المخوّلة لي معها. وكانت تتوزعني دائماً غبطة عميقة وكآبة مبهمة وأنا أراقصها. أمّا هي فكانت تراقصني كدمية متحركة. وكان وجهها يبدو كئيباً على الدوام، والنظرات الحزينة لا تفارق عينيها. ولم أجسر يوماً على مخاطبتها.

وذات أمسية نظرت إليّ درية وقالت باقتضاب: أنت أتقنت الرقص سريعاً يا أستاذ.

كانت لهجتها عادية لا تنبيء عن شيء، لكنني رددت عليها بحماسة: يسرني أن تلاحظي ذلك، والفضل يعود إليك يا مدموازيل درية.

فقالت بلطف: العفو يا أستاذ.

ومرت الأيام، وبدأنا نتبادل التحيات المألوفة وعبارات مقتضبة عامة. وخيّل إليّ أن موقفها مني يتغيّر يوماً بعد يوم، وأن هيئتها الرسمية الصارمة تختفي أثناء مراقصتها لي. وكنت أحسبني مبالغاً في تخيلاتي، لكن موقفها مني جعل ينجلي شيئاً فشيئاً مبدداً شكوكي. أخذت تستقبل دعوتي للرقص بابتسامة وتتقدم معي إلى الحلبة برغبة واضحة. وكانت أسارير وجهها تبدو منطلقة طيلة الوقت. ومع أن الحياة دبت في رقصها، إلا أن هيئتها المحتشمة لم تفارقها يوماً. ولم تسلمها رقصة "التانجو" مرة إلى ضغط صدرها على صدري أو إسناد رأسها إلى كتفي كما تفعل الأخريات.

وشجعني موقفها مني على التفكير بدعوتها إلى شراب رغم أنها تأبى قبول دعوة أحد. كنت أحسب أنها ستولي دعوتي اعتباراً خاصاً. وكنت أحب أن أعبّر لها عن امتناني بطريقة ما. ونفضت عني التردد ذات مساء وقلت: أتسمحين لي أن أدعوك على شراب يا مدموازيل درية؟

فطالعتني بعينين حائرتين وقالت برقة: لا مؤاخذة يا أستاذ علي، أنا لا أقبل دعوة من أحد.

- أرجو المعذرة.

ومع أنني قدّرت موقفها حقيقة، إلاّ أنني أخفقت في التخلّص من شعور بالضيق والحرج طيلة بقية السهرة.

وألمّت بي مشاغل صرفتني عن المرقص أسابيع، وما كادت الفرصة تتاح لي ثانية حتى مضيت إليه بشوق وأخذت طريقي المعتاد إلى مجلسي بالقرب من درية. كانت تراقص شاباً ، كأنها دمية من عاج. وما أن انتهت الرقصة حتى عادت إلى مقعدها بخطواتها الموزونة ولاحت منها التفاتة إلى جهتي فتلاقت عيوننا. وخيّل إليّ أنها همت بالنهوض والإقبال عليّ. كان سرورها برؤيتي جلياً. زايلها الجمود وتألق وجهها وافترت شفتاها عن بسمة عريضة. ولم تحوّل عينيها عن وجهي طيلة فترة الاستراحة.

تعالت أنغام الموسيقى ثانية فتقدمت إليها. وما أن خلونا في حلبة الرقص حتى تساءلت بلهجة مزيجة من الغبطة والعتاب: لماذا غبت كل هذه الأيام يا أستاذ علي؟

قلت: شغلتني أمور طارئة يا مدموازيل درية، وهذه هي المرة الأولى التي أتملص فيها من المشاغل.

وللمرة الأولى منذ عرفت درية وجدتها مستسلمة لعواطفها. كان كل شيء فيها يعبّر عن غبطة عميقة.. نظراتها الحالمة، وجهها الضاحك، رقصها النابض بالروح. وراحت تميل على جسدي بين لحظة وأخرى فيلتصق صدرها الناهد بصدري، ويلامس شعرها الناعم خدي. وقالت لي في الرقصة الثانية بلهجة مترددة: إذا كنت يا أستاذ علي تحب أن تدعوني إلى شراب فلا مانع عندي.

- يسرّني ذلك يا مدموازيل درية.

قالت بتردد: ولكن ليس هنا.

- خارج المرقص؟

أومأت بالإيجاب ووجهها يتورد.

غادرنا المرقص عقب الرقصة الثالثة، واخترقنا الميدان، وسلكنا شارع ابراهيم باشا. وقرّ عزمي على اصطحابها إلى مطعم في شارع الألفي. وقطعنا معظم الطريق صامتين. كانت درية تسير بجواري وهي خافضة النظر مضرجة الوجنتين. ودخلنا مطعماً أنيقاً تشعّ الأنوار من نوافذه. كانت موائده مزدحمة بالزبائن. وكان هواؤه المفعم بالعطر، وبريق الحليّ في أنواره المتوهجة، ووجوه زبائنه الناعمة تسبغ عليه جواً ارستقراطياً. وتقدمتني درية نحو مائدة خالية وهي تتعثر في خطواتها. وما أن انحطت على المقعد حتى تمتمت وهي تغتصب ابتسامة حائرة: أنا خائفة يا أستاذ علي.

- خائفة! وممن؟!

- أنا لم أدخل في حياتي مكاناً غالياً كهذا. وهؤلاء الناس الأغنياء..

فقاطعتها: بماذا يتميّز عليك هؤلاء الناس الأغنياء؟! بمظاهر الأبهة لا أكثر.

فتجمعت في مقعدها متصاغرة وجعلت تتفحص فستانها في قلق مُمّض. قلت محاولاً صرفها عن خواطرها: والآن ماذا ستطلبين يا مدموازيل درية؟

فتناولت قائمة الطعام، وحارت عيناها بين الأسماء المتزاحمة. وقالت أخيراً: رز وملوخية.

- هذا طلب غير موفق. اسمحي لي أن أطلب لك أنا بنفسي.

وحضر النادل فقلت له: هات فراخاً محشوة مع الرز والملوخية.

تطلعت إليّ درية بدهشة، وكادت صيحة اعتراض تفلت من بين شفتيها. وقالت باحتجاج حالما مضى النادل: لا، لا يا أستاذ علي. هذا كثير جداً. كنا متفقين على شراب فقط.

ـ بالعكس يا مدموازيل درية، هذا أقل ما يمكن أن أقدّمه لك.

ـ متشكرة جداً.

أحضر النادل الطعام، فانبرت تتناول لقيمات صغيرة في حذر وقلق. وكانت تحاول أن تتجنبني بنظراتها طيلة الوقت. وقالت أخيراً بصوت متعثر وهي ترمي وجهي بنظرة سريعة: لا مؤاخذة يا أستاذ علي إذا كنت لا أتصرف كما يتصرف المدموازيلات. أنا لم أخرج مع أي واحد من قبل.

ـ أنا أعلم ذلك، فأنت لا تقبلين دعوة أحد من رواد المرقص على شراب، فكيف تخرجين معهم؟! وكم أثار عجبي امتناعك هذا في الوقت الذي يتهالك فيه زميلاتك للحصول على زجاجة كوكولا.

فقالت: لا تلمهن يا أستاذ علي. إنهن مضطرات وإلا طردن من المرقص.

ـ ولِمَ لا تطردين أنت إذن؟

فقالت وهي تخفض نظرها بحياء: أظن لأنني أحلى الموجودات.

وترددت قليلاً قبل أن ألقي عليها ذلك السؤال الذي أمضّني طويلاً، لكنني وجدت نفسي أسائلها: اسمحي لي أن أسألك يا مدموازيل درية. كيف ارتضيت لنفسك العمل في مثل هذا المرقص.. الوضيع؟!

فشحب وجهها، ثم احمرّ احمراراً شديداً، وتسمّرت عيناها على الصحن. وجعلت تتناول طعامها بحركة آلية وتلوكه ببطء. وهيمن علينا صمت ثقيل، وأدركت أنني قد أفسدت جلستنا.، وبقيت حائراً لا أدري كيف أنقذ الموقف. ثم همست درية أخيراً دون أن ترفع أنظارها عن الصحن: وكيف يعيش إخوتي؟

- أنا آسف يا مدموازيل درية ولست أدري كيف أعتذر لك عن هذا السؤال الفضولي. لكن وجودك في ذلك المرقص كان يبدو لي دائماً أمراً شاذاً لا يتناسب وشخصيتك.

فلاحت في عينيها نظرة كئيبة وغمغمت: ومن له حق الاعتراض على إرادة ربنا؟ أنا مسؤولة عن خمسة إخوة أكبرهم في أولى ثانوي.

وسرعان ما اختفت الكآبة من عينيها وانبسط وجهها ونظرت إليّ بحب وقالت: ومع ذلك فأنت ترى أن ربنا لم يحرمني من السعادة فجعلني أتعرف بك.

قلت وقد صعدت الدماء إلى وجهي: هذا ثناء لا أستحقه يا مدموازيل درية.

عادت إلى درية بهجتها، وأقبلت على طعامها في شهية، وراحت تتحدث بانطلاق: أتعرف يا علي؟ أنا لم أكن أحب أن أراقصك في البداية. كنت أحسّ أنك مثل صديقك الذي جئت معه في المرة الأولى، ثم ظهر لي يوماً بعد يوم أنك تختلف عنه كل الاختلاف. تختلف عن زبائن المرقص جميعاً. فهم كلهم ينظرون إليّ بطريقة بشعة وكأنهم يريدون أن يفترسوني. أما أنت لمهذب رقيق حنون.. وكنت ألاحظك وأنت تختار

مجلسك على مقربة مني دائماً، وتسارقني النظـر. أصـارحك يـا علـي أن نظراتك كانت تضايقني في البداية. كنت أحسب أنهـا شبكة لاصطيادي. ثم بدأت أشعر بسرور وارتياح لها. وحينما دعوتني إلى شـراب فـي تلـك الليلة كنت أودّ من كل قلبي أن أقبل دعوتك، ولكنك تعرف ظروفي. فلما انقطعت عن المجيء خشيت أن تكون زعلت مني ولن تأتي مرة أخرى. ولمت نفسي على رفضي دعوتـك. وكـم كـان مجيئك هذه الليلـة مفاجـأة سارة لـي يـا علـي! الحمـد لله أنـك لسـت زعلانـاً منـي. يجـب أن تـأتي لزيارتنـا وتتعـرف بـأمي، وسـاعرفك بـأخوتي أيضـاً. إنهـم لطـاف جـداً. وسيحبونك.. أنا متأكدة أنهم سيحبونك كثيراً.

كانت تتكلم بحرارة وعيناها تتألقان بعواطفها المشبوبة. وكنت أصغي إليها وأنا أهزّ رأسي موافقاً وابتسامة باهتـة تتعلـق بشـفتي. كنـت أحـاول عبثاً مواجهة نظراتها السعيدة. كـانت عينـاي تـزوران علـى الرغـم منـي ناظراً ببلاهة إلى الموائد المجاورة. وفاضت جوانحي بشعور مرّ، مهين. وتعلّقت بذهني صورة زوجتي فـي الوطـن البعيـد، واشـتبكت مـع صـور زبائن مرقص "مـولان روج"، وصـور مـن زبـائن المطعـم ذوي الوجـوه الأنيقة والبسمات الناعمة. واستولى عليّ إعياء مفاجيء، وشعرت بصداع أليم. وحينما غادرنا المطعم أيقنت أنني مريض.

سرنا صامتين وقد أشرق وجه درية بابتسامة سعيدة. ولم أجرؤ علـى النظر في عينيها. وبلغنا ميدان "العتبة" فقالت برقة: لا مؤاخـذة يـا علـي، يجب أن أعود إلى البيـت قبـل أن تقلـق أمـي. سـأراك مسـاء السـبت فـي المرقص. أليس كذلك؟

- طبعاً. طبعاً.

وجمدت في موضعي أودعها بنظرة أخيرة وهي تندسّ بين ركاب "الترام". وظلت عيناي عالقتين "بالترام" وهو ينطلق مجلجلاً حتى اختفى عن أنظاري.

خصام

- أريد أن أصحبك.

- هذا غير ممكن.

- ولم؟

- لأن المكان لا يعجبك ولن تستطيعي البقاء فيه طويلاً.

وتجهمَ وجه سهيلة. لم يعد في وسعها أن تغالط نفسها. إن حب نزار ذهب إلى غير رجعة، وإنه ليزداد زهداً فيها يوماً بعد يوم. ولِمَ تلومه؟ هذا هو شأن الفنانين. إن حبهم لا يدوم طويلاً. وإنها لتفهم الآن لماذا قدّم لها قبل أيام كتاب "حياة أعاظم الرسّامين" وسألها أن تقرأه. لقد كان خير شاهد على هذه الحقيقة، فمعظم أبطاله قد أحبّوا أربع أو خمس مرات في حياتهم. وكان حب البعض منهم لا يدوم أكثر من أسابيع معدودات. لكن نزار لن يفعل هذا معها.. إنها لن تدعه يتخلّى عن حبها بهذه البساطة، فهي لم تنعم بالحياة معه سوى شهور قليلة مرّت كالحلم. وهي لا تطيق الحياة بدونه، لا تحتمل مجرد التفكير بذلك. ومن المؤكد أنها ستموت، ستقتل نفسها.

اختلست إليه نظرات مشغوفة وهو منهمك في اختيار الألوان ومزجها في علبة الأصباغ. كان يرتدي سروال العمل الأزرق الملّوث بالدهان والبلوز الصوفي الأخضر الذي حاكته له بنفسها هذا الشتاء. وكم يبدو جميلاً في هذا اللباس، كم يبدو جميلاً! كانت واثقة أن اللون الأخضر

الفاتح أنسب الألوان لبشرته، وشكراً لله، فقد اقتنع برأيها وترك الألوان القاتمة التي كان يفضلها قبل الزواج. إن قامته كقامات أبطال كرة السلة، وإن له شعراً فاحماً مموّجاً وعينين بنيّتين واسعتين يضارع بهما أجمل ممثلي السينما. وكيف تستطيع العيش بدونه، كيف؟

ـ نزار، أتحبني؟

أجاب نزار دون أن يرفع إليها أنظاره: طبعاً.

وهذا دليل آخر على انطفاء حبه. طبعاً.. يرد عليها بهذه البساطة وكأنها سألته إن كان يرغب في لون معيّن من الطعام! ولعله نسي كيف كان يعذبها ساعات، بل أياماً، قبل أن يقول لها أحبك. وكم كان مقتصداً في قول كلمات الحب، حتى في الشهر الأول من زواجهما! ومع ذلك كانت موقنة آنذاك أنه يحبها بكل قلبه. أما الآن فهو مستعد أن يقول لها أحبك متى شاءت، وهذا يعني أنه لم يعد يحبها حقيقة. إنها ليست بحاجة إلى برهان جديد، فهناك مئات الشواهد على اعتقادها، بل إن حياتها الحالية معه بكليتها أسطع برهان. ومع ذلك فستقيم برهاناً جديداً الآن.

ـ نزار، هذه الصورة ستكون أروع صورك.

تحول نزار عن علبة الأصباغ، وتأمل الصورة الموضوعة على الحامل لحظة ثم تمتم وهو يعكف على عمله: ربما.

رمقته سهيلة بنظرات حانقة، وضغطت على قلم الرصاص فوق المنضدة فانكسر رأسه. كانت قد رسمت كلمة "أحبك" على ورقة بيضاء مراراً عديدة، بخطوط ملتوية متشابكة. وتأملت الكلمة مفكرة، وتساءلت إن كانت قد فقدت حبه إلى الأبد! إن سلوكه معها يؤكد ظنها بشكل قاطع،

وقد سقط حتى في هذا الامتحان الأخير. إنه يرد على إطرائها في برود تام وكأنه يسمعه من شخص اعتيادي لا قيمة لرأيه. أهذا هو نزار حقاً؟! نزار الذي عرفته في "معرض الفنانين الشعبيين"؟! والحقيقة أنها لم تعجب حينذاك برسومه. لكن منظره بهرها حقاً حتى أنها همست في أذن امتثال وهما يمرّان به: (هذا الشاب أحسن صورة في المعرض)، فأيدتها امتثال. وكان هو يقف بقامته الشامخة إلى جوار صوره وعيناه البنيتان تتفحصان زوار المعرض. فلما وقفت مع امتثال أمام صوره لاحظت من طرف خفي أن عينيه استقرّتا عليها. وكم شعرت بزهو ونشوة لتلك النظرات! كانت ترتدي تلك الأمسية فستانها البنفسجي الذي ما تزال تعتبره حتى اللحظة أجمل فساتينها. وكانت ساحرة حقاً. كانت عيون زوّار المعرض تتبعها حيثما اتجهت، الرجال مأخوذين بجمالها والنساء معجبات بفستانها. ولم تطل امتثال وقفتها أمام الصور وقالت: فلنذهب إلى قسم آخر يا سهيلة فأنا لا أفهم هذه الصور.

ولكنها أبت أن تغادر المكان برغم أنها لم تفهم الصور أيضاً. وقالت بصوت مرتفع: لِمَ العجلة؟! هذه الصور لا تفهم بسرعة.

وسمع ردها كما توقعت، ولمحته يتقدم نحوهما بخطوات بطيئة، ثم وقف وراءهما. وتلفتت حواليها فالتقت عيناها بعينيه. قالت لامتثال وهي تردد أنظارها بينه وبين زوار المعرض: ربما ساعدنا في فهمها المشرفون على المعرض.

فتساءل: هل من خدمة يا آنسة؟

فقالت باسمة: كنت أحب أن أسأل عن معنى هذه الصور.

ثم أشارت إلى صورة بدا فيها حيوان غريب بشع مطبقاً أسنانه على جسد شابة حسناء وتساءلت: ما معنى هذه الصورة مثلاً؟

فاشار نزار باصبعه إلى عبارة صغيرة مكتوبة أسفل الصورة، فقرأت: الحرية تناضل.

وتمعنت في عينيه البنيّتين وقالت: إنها صورة رائعة بلا شك، لكن جوّها الغامض يجعل فهمها صعباً.

فقال وهو يتأمل الصورة: انا أتفق معك يا آنسة، ولكن ما قيمة الفن إن كان بوسع كل إنسان أن يفهمه منذ النظرة الأولى؟

وثار بينهما نقاش كانت خلاله هي المصغية معظم الوقت، ولم تكن في الحقيقة تصغي إلى نقاشه بقدر انصرافها إلى تأمل عينيه ووجهه وإعجابها بوسامته يزداد لحظة بعد أخرى.

وقررت أن تزور المعرض مرة ثانية. وارتدت فستانها البنفسجي بعد أيام ومضت بمفردها. كان هو يقف إلى جوار لوحاته وعيناه تتصفّحان الزوار. واختلست إليه النظر وهي تتنقل في أرجاء القاعة فرأت عينيه معلقتين بها. وما أن وقفت أمام صوره حتى تقدم نحوها وحيّاها، وأخذ يشرح لها الصور. وراحت تكيل له المديح بعد أن فهمتها، فتلقى نزار مديحها بسرور بالغ. كان يبتسم ابتسامته العذبة ويقول وهو يدس يديه في جيبي بنطلونه: (إنني سعيد جداً لوجود زوّار مثلك يقدّرون الفن حق قدره. لكن أفراد هذه الطبقة قليلون جداً مع الأسف، وإن الإنسان ليحتاج إلى منظار مكبّر ليبحث عنهم بين جموع هؤلاء الزوار). أما الآن فلم تعد لآرائها قيمة تذكر، ويبدو أنه نسي أنها من تلك الطبقة القليلة التي

يُبحث عن أفرادها بالمنظار المكبّر! ولم يعد يتلقى أحكامها بتلك الحماسة والسرور التي كان يتلقّاها بهما من قبل، والسبب واضح جداً. خير لها مائة مرة لو رفضت الزواج منه وظلت تحيط نفسها بجوّ خاص كما كانت تفعل أيام صداقتهما، فالفنان يهفو دائماً إلى المجهول وإذا تكشفّت له أسراره فقد طرافته. بل إن وجودها في "الاستديو" غدا ثقيلاً عليه بدلاً من أن يكون موحياً له!

خبطت سهيلة المنضدة بقبضتها في عنف فطار قلم الرصاص إلى الأرض، وتدحرج حتى استقر عند قدمي نزار، وهتفت بإصرار: سأتي معك.

وكان نزار قد فرغ من مزج الأصباغ فأغلق العلبة، ثم رفع إليها أنظاره متسائلاً وقال: أنت تعلمين أن ذلك المكان لا يصلح لمجيئك، فما معنى هذا الإصرار؟!

فقالت سهيلة وهي تلقي بشعرها الأسود الطويل إلى الوراء: إنه ليس المكان بل سبباً آخر.

- وما هو؟

قالت سهيلة وهي تحدّق في أظافرها القرمزية: أنت لم تعد تحب وجودي، فلِمَ لا تصارحني بذلك؟

لاح الإستياء على وجه نزار وقال بانزعاج: أعُدنا إلى هذا السخف يا سهيلة؟

رفعت سهيلة رأسها وقالت بحدّة: نعم، هذا هو السبب، هذه هي الحقيقة، أنت لم تعد تحبني.

قال نزار وقد غام وجهه: قلت لـك إن مـن الخـير لـي ولـك نبـذ هـذه الأوهام. أنا لا أستطيع أن أخصص وقتي كله لأؤكـد لـك فـي كـل لحظـة حبي. لديّ أعمال أخرى ومن المستحيل أن أفرغ لهذا الأمر وحده.

كان وجه سهيلة قد احتقن وتعكرت صفحته النقيّة. وكان ثمة عاصفـة بكاء على وشك الانفجار. استمرت تقولِ بصـوت مختنـق: طبعـاً، طبعـاً، أنت مشغول بأمور أخرى أكثر أهمية، وما شكوكي سوى أوهـام سـخيفة. لماذا لا تقول إنني حمقاء؟

وتعلّقت قطرات فضية برموشـها الطويلـة، ثم سـالت علـى وجنتيهـا. وأحسّ نزار بقبضـة تعصر قلبه. ألقى بعلبة الأصباغ علـى المنضـدة، ثم اقترب منها حتى واجهها وقـال برقـة: أنـت تعلميـن جيـداً أننـي أحبـك يـا سهيلة. أنت تعلمين هذا، فلِمَ تحاولين إفساد حياتك وحياتي بهذه الأوهام؟!

وسكت لحظة وهو يحدّق في وجهها بعينيه المتضرّعتين، لكنها ظلـت مطرقة عابسة الوجه، فاستمر يقول: هل تستطيعين أن تقدمي لـي برهانـاً ملموساً واحداً على هذه التخيّلات؟

حاولت سهيلة أن تأتيه بالبرهان الملموس فلم تسعفها ذاكرتها. إن من العسير حقاً تقديم برهان عملي. فرقّة نزار ولطفه لم يتغيرا. لكن الأمر لا يتعلق ببرهان عملي بل بإحساس داخلي. فهي تحسّ إحساسـاً مفعمـاً أنهـا مصيبة. فقالت فجأة وكأنها عثرت على الدليل: لو كنت مـا تـزال تحبنـي لرسمت صورتي.

فتحول عنها نزار وقد عاوده يأسه، وقال في قنوط وملـل: عدنـا إلـى هذا الموضوع.

فثار غضب سهيلة من جديد، وهتفت محتدّة: نعم، حتى هذا الموضوع أصبح مزعجاً لك. طبعاً لو كنت لا تزال تحبني حقاً لرسمت صورتي.. أم تراني تغيرت خلال هذه الشهور وأمسيت غير صالحة للرسم؟! أنسيت كيف كنت تظهر في بداية تعارفنا إعجابك الشديد بي كنموذج للرسم، وكيف كنت تلّح عليّ أن أسمح لك برسمي؟! أما الآن فالإشارة إلى هذا الموضع تجعلك عصبياً. لماذا؟! ألأنني لا أستحق أن أستفد جزءاً من موهبتك بينما يستأهل الشحّاذون وذوو الوجوه الوسخة والأماكن القذرة أن تصرف على رسمها أياماً طويلة؟!

تنهد نزار وقال بصوت يائس: أنت لا تحاولين أن تفهمي موقفي يا سهيلة، أنت لا تريدين أن تفهمي.

وسكت لحظة ثم التفت إليها وقال بهدوء: كيف تتجاهلين رأيي في الرسم إلى هذا الحدّ؟! أنت تعلمين تمام العلم أنني لا اسخّر فني لمثل هذا الترف، فعلى عاتقي واجب مقدس، ويجب أن أكرّس فني لخدمة الشعب.

فهتفت سهيلة في غيظ: وأنا؟ الست فرداً من هذا الشعب؟! لماذا لا توجه اهتمامك إليّ أيضاً؟! أنت تمعن في إهمالي يوماً بعد يوم. أنت لا تهتم إلاّ بعملك.

وكان ثمة نار متأججة قد اندلعت في أعماق سهيلة، لم تكن تفهم سرّها بالضبط. وكانت تتأمل غضبها المتّقد بدهشة وذعر، لكنها عجزت عن كبحه. واستمرت تهتف بحدّة: أنا لم أعد بالنسبة إليك سوى قطعة من أثاث المنزل، قطعة لا تستحق الالتفات. ومتى أستطيع أن أتحدث إليك كما تفعل الزوجات مع أزواجهن؟! أنت مشغول دائماً. وإذا جالستك في

"الاستديو" فليس لي أن أتكلم بحرية لئلا يطير الوحي منك. وإن وقتك ليضيق عن زيارة أصدقائنا، ويضيق عن اصطحابي إلى السينما. وقد مضى على آخر "فيلم" شهدناه معاً أكثر من شهر. ولم يكفك ذلك فحرّمت عليّ حتى مرافقتك إلى مواضع الرسم. ومع ذلك فأنت تزعم أنك تكرّس فنك لإنقاذ الشعب البائس. إنك لا تعمل على إنقاذه من عذابه في الحقيقة بل تضيف إليه معذّبين جدداً. وكيف يمكنك إنقاذ الشعب برسومك غير المفهومة، كيف؟!

كان نزار يحاول طيلة الوقت ضبط أعصابه، لكن عبارتها الأخيرة ألهبت غضبه. وهمّ أن يخرسها بصيحة غير أنه تمالك نفسه وغمغم وهو يدير إليها ظهره: المناقشة معك عقيمة فأنت لا تريدين أن تفهمي الموقف.

والتقط علبة الأصباغ بعجلة، وتأبّط لوحة الرسم والرافعة الخشبية وغادر "الاستديو" مسرعاً.

أوسع نزار خطواته في الشارع وكأنه يهرول. كان صراخ سهيلة ما يزال يدوّي في أذنيه فيثير بين جوانحه انزعاجاً حاداً. إنه ليكاد ينكر سهيلة ولا يصدق عينيه، فليس من عادتها الصراخ. لقد كانت هادئة دائماً فيما يشجر بينهما من خلاف، وكانت تعتبر الصراخ لدى أصدقائه أبرز الدلائل على تأخرهم. وها هي الآن تصرخ في وجهه بكل ما أوتيت من قوة! ولماذا؟! لأي سبب؟ إنه لا يعرف له ذنباً. ولا بد أن ثمة خطأ ما. لا بد أن أمراً قد حدث لها. فهذه ليست سهيلة، ليست سهيلة الوديعة اللطيفة. إنه عاجز عن فهم أسباب تغيّرها. وإن طباعها لتزداد خشونة يوماً بعد

يوم. لقد بدت له في أوائل تعارفهما امرأة ممتازة جمعت كل الصفات الحسنة. كانت لطيفة، ذكية، شغوفة بالفن. وكثيراً ما سهرت معه ليالي طويلة في الشهر الأول من زواجهما لتشهد اكتمال صورة من صوره. وإنه ليتذكر كيف صمّم ذات ليلة على إنجاز إحدى صوره، وكيف سهرت معه سهيلة حتى الصباح. كانت تجلس على الكرسي الخشبي الطويل في "الاستديو" مسندة ظهرها إلى حاجزه وعيناها لا تتحوّلان عن الصورة. وكان النعاس يهاجمها بإصرار فتقاومه بصلابة وعناد. كان رأسها يسقط على صدرها بين حين وآخر فتنتبه مذعورة وتختلس إليه النظر لئلا يكون قد شهد ذلك. وعبثاً حاول إقناعها بالانصراف إلى الفراش، وعبثاً تظاهر بالتعب وحاول تأجيل العمل إلى الغد، فقد أصرّت على البقاء في "الاستديو" حتى تنجز الصورة. لكن هذا الحماس لم يدم طويلاً. فها هي ذي قد بدأت تعلن تبرّمها وضيقها من انهماكه في الرسم وتحاول أن تستأثر به. ونسيت أن الرسم أهم شيء لديه في الحياة، وأنه بالنسبة إليه كالماء للسمكة. وظن في البدأ أن هذا التبرّم نزوة طارئة، وحسب أنها ستزول سريعاً. لكنه أيقن الآن أن تقديره كان خطأ. فقد اشتدت كراهيتها للرسم، والله يعلم إلى أي مدىً ستصل. وماذا سيفعل حينئذ؟ ماذا سيفعل؟! إنها تعلم جيداً أنه لا يستطيع هجرها، إن مجرد وجودها على مقربة منه، في "الاستديو"، في غرفة النوم، في أحد أركان المنزل، ليملأ نفسه غبطة. غير أنه لا يستطيع هجر الرسم أيضاً. وليتها تفهم هذا، ليتها تفهم موقفه جيداً.

انتبه نزار من أفكاره على صخب الأطفال فتوقف عن السير. كان قد بلغ موضع الرسم في (كامب الصليخ)، لكن البقعة التي اعتاد اختيارها قد غمرتها المياه الآسنة. وتطلع حواليه مفتشاً عن بقعة مجاورة يحافظ فيها على زوايا الصورة. ووقف بعض الأطفال الحفاة الممزقي الثياب ينظرون إليه في تهيّب ولهفة. كان قد اعتاد أن يمنح بعضهم نقوداً، ويلاطف البعض الآخر. غير أنه لم يحسّ تلك اللحظة برغبة في ذلك. واتجه بصمت نحو بقعة جافة دون أن يلتفت إليهم، ووضع أدواته على الأرض. وهيّأ الصورة، وأعدّ الألوان، ثم بدأ بالعمل. وراقبه الأطفال بأنظارهم المتلهّفة دون أن يجرؤوا على الاقتراب منه، ثم انصرفوا إلى لهوهم يائسين.

أكبّ نزار على الرسم وهو يشعر بضيق شديد. ولم يفهم السبب. ربما كان مرجع ذلك إلى هذه الرائحة القوية التي تنبعث من المستنقع المجاور. ولقد أحسن صنعاً برفض اصطحاب سهيلة، فلو قدمت معه لما احتملت البقاء أكثر من دقائق معدودات. وإنه لواثق أن من العبث اصطحابها إلى مثل هذه الأمكنة. فليس وراء ذلك سوى تبديد الوقت. صحيح أنها كانت تجد في صحبته متعة في الشهور الأولى، غير أنها لم تعد تطيق ذلك الآن. وكلما رافقته إلى أحد أحياء الفقراء أصرّت على العودة سريعاً، وراحت تلح عليه في الكفّ عن رسم تلك المواضيع، وإنه لمندهش من هذا التحول الغريب في اتجاهاتها! كانت شعبية في ميولها إلى أقصى حدّ، ولا يتذكر أنها عارضته يوماً وهو ينتقد أولئك الفنانين الذين يقصرون فنهم على الجمال. وكانت تسميهم هي نفسها "فناني

الصالونات". وكم كانت تبدي ارتياحها لأنه ليس من تلك الزمرة. وقد قالت له مرّة أيام صداقتهما انه لو انضم إلى فناني الصالونات لقطعت صلتها به. أما الان فهي تأسف على الوقت الذي ينفقه في رسم الحياة الشعبية! وينبغي له أن يذكّرها دائماً بفلسفته في الرسم!

كفّ نزار عن العمل، وتراجع بضع خطوات إلى الوراء وتأمل الصورة وقتاً، ثم حوّل أنظاره إلى بيوت الحيّ.كانت شمس العصر تلقي على الأكواخ المتزاحمة أشعة صفراء فاقعة. وكان بعض العجائز يجلسن أمام الأكواخ في كسل وتراخ وجيوش الذباب تحلق فوق رؤوسهن. وانتشر الأطفال بجوار البرك الآسنة يلعبون في خمول. وبدا لنزار أن جوّاً من الكآبة يخيّم على كل شيء.. على البيوت الطينية الحقيرة، على وجوه الأطفال والعجائز الشاحبة، على الأقذار والبرك الآسنة. وعاد يتمعن في الصورة وهو يهز رأسه متأملاً. لا شك أنه عبّر عن بؤس هذا الحيّ تعبيراً جديداً. وقد مثّل البيوت بفجوات مظلمة كفوهات القبور، والأطفال والعجائز بمخلوقات غريبة ذات أجسام هزيلة شوهاء وعيون بارزة ورقاب طويلة، والبرك الآسنة والأقذار بلطخات سوداء قاتمة. ومع ذلك فهو يحسّ أن شيئاً ما مفقود في الصورة. ربما كان تلك الروح الخانقة الكئيبة التي تكلكل على الحيّ.

استأنف نزار عمله وقد اعتراه الفتور. من المؤسف أن الذين يبذل من أجلهم كل هذه الجهود يعجزون عن فهمه، فهم لا يحبون فنه، وصوره لا تلقى صدى في نفوسهم. والذنب على أية حال ليس ذنبه بل ذنب الجمهور ذي الذوق البدائي. فهو لا يمكنه أن يرسم بالأسلوب

التقليدي وإلاّ فقد أهم ميزة للفنان وهي الابتكار. غير أنه لا يلوم الجمهور فسيأتي يوم يقدّرون فيه فنه حق قدره. والذي يحز في نفسه حقاً إنكار الفنانين لمقدرته وهم أعلم الناس بها. فهم يدركون تمام الادراك قيمة إبداعه في الأسلوب والألوان والمواضيع، ولا يمكن أن يدانيه أحد منهم في ضربات فرشاته، لكن حسدهم يمنعهم من الاعتراف بالحقيقة. وقد اتخذوا من عجزهم في نبذ الأسلوب التقليدي حجة لاتهامه بالغموض. وراحوا يحاربونه ليؤثروا على عقول الجمهور ويصرفوا أنظارهم عن صوره. ولم يكن يأبه لمحاولاتهم من قبل، لكنه أدرك الآن مدى تأثيرهم على الجمهور، فقد بدأت سهيلة نفسها تؤمن باتهاماتهم.. سهيلة، التي كانت آخر إنسان يمكن أن ينحاز إلى جانبهم. كان تحمّسها لصوره يبلغ حدّ الهوس، وقد تخاصمت مع امتثال ـ وهي أعز صديقاتها ـ لأنها أصرّت على القول بأن صوره لا يفهمها أحد. وكانت تؤمن أن أية صورة من صوره تضاهي عمل أي فنان عالمي! وقد كان يعتز بإعجابها ويسرّ له في أعماق نفسه، رغم اعترافه بضحالة ثقافتها في فن الرسم. وإنها لخسارة حقاً أن يفقد معجباً كسهيلة، لكن هذه الخسارة جزء من تضحياته في سبيل خلق فنّ ذي أسس راسخة من الإبداع والتجديد.

استمر نزار في عمله وفتوره يشتد لحظة بعد أخرى. وخالجته رغبة قوية في الكفّ عن العمل، لكنه ظلّ يقاومها. وأتم اللطخات النهائية للبيوت ثم تراجع إلى الوراء بضع خطوات وتأمل الصورة بإمعان. وبدا له فجأة أن الصورة سخيفة لا معنى لها، أنه يبدد حياته لغير سبب

واضح، أن الاستمرار على هذا المنوال حماقة كبرى. وجمع أدواته مسرعاً وقفل عائداً إلى البيت.

وفي الطريق اقتنع مرة أخرى بشكل حاسم أنه لا يستطيع الحياة بلا رسم، بلا كفاح في سبيل الشعب، بلا سهيلة، وأن الكفاح والرسم وسهيلة جزء واحد لا يتجزأ، ويجب عليه أن يصمد أمام الصعوبات حتى يفلح في هدفه. وأسرع الخطو وقد تملكه حماس مفاجيء وودّ لو يصل في نفس اللحظة إلى البيت ليحدّث سهيلة بكل آماله. لكن سؤالاً حائراً قفز إلى رأسه فجأة وأخذ يقرع ذهنه في ألم مُمِضّ: "كيف أجعل سهيلة تفهم الموقف، كيف؟!"

الصَّيف

اندفع سيل الموظفين من مكاتبهم حالما أشارت الساعة إلى الثانية، وحمل هذا السيل معه حمدي عبود الموظف في وزارة العدلية. وعند الباب الكبير التصق حذاؤه بالجير المائع، فقطع طرف الجريدة ومسح الجير لئلا يلتصق ببنطلونه. ومرّ بمحمد الأسود وهو يجلس في موضعه المعتاد عند التقاء شارع المتنبي بسوق السراي فلم يتوقف شأنه كل يوم، وردّ على ابتسامته العريضة بإيماءة سريعة. فهو لا يستطيع أن يقف تحت وهج الشمس لينتقي بطاقة يانصيب، وهو لم يعد يؤمن بحظه على أية حال. وعند التقاء شارع المتنبي بشارع الرشيد وقف حمدي على الرصيف المظلل يفكر حائراً.. أيواصل السير إلى "باب المعظم" ليقتصد ثمن تذكرة "الباص"، أم يستقل "الباص" من هذه المحطة ويضحي بالأربعة عشر فلساً ويتقي شرّ الحر؟ ومرّ بجواره حمّال ينوء ظهره بخزانة ضخمة وقد التصق ثوبه المبلل بجسده. وتخاطفت السيارات الأمريكية أمام عينيه. وتأمل بقع الجير المائع أمامه وقرر أن يستقل "الباص". وتأهب لعبور الشارع إلى الجانب المقابل فلمح امرأة كاعبة النهدين تقبل نحوه، فانتظر بلهفة وصولها. كانت ذات بشرة عاجية وعينين زرقاوين وشعر ذهبي ملتف من الخلف في كرة جميلة. وكان فستانها الشبيه بقميص داخلي ينحسر عن صدرها الناهد ويكشف عن ظهرها البديع. واتجهت المرأة نحو "باب المعظم" فمشى وراءها وكأن

قوة مغناطيسية تجذبه جذبا. لا شك أنها أوربية، وربما كانت ألمانية، فقد سمع كثيراً عن جمال الألمانيات وعن أجسادهن الريانة. زين لها من حياة يقضيها المرء في بلاد الألمان الجميلة بين هؤلاء النسوة الرائعات! أفتحسب حياته حياة؟! انعطفت المرأة في شارع مقهى "زهاوي" وتوقفت عند سيارة أمريكية فاخرة. فوقف يتابع حركتها حتى انطلقت بها السيارة صوب "الباب الشرقي". وخيل إليه أنها ودعته ببسمة خفيفة. وواصل سيره ومزيج من عواطف الشوق والأسى يتجاذب قلبه.

وسبح جسده بالعرق، والتصق قميصه بجسده. كانت خيوط العرق تنحدر على مؤخرة عنقه وعلى خديه باستمرار. فلم يعد يعبأ بتجفيفها فسرعان ما تنحدر خيوط غيرها!

كانت محطة "باب المعظم" مزدحمة كالعادة، وكان بعض المنتظرين يقفون خارج المظلة ليسبقوا الآخرين في ركوب "الباص". ولكن حمدي فضل الوقوف تحت المظلة ليتقي أشعة الشمس. أقبل "الباص" فانقض عليه جمهرة من المنتظرين وتدافعوا في خشونة ووطيء بعضهم بعضاً. وأقبل "الباص" الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع دون أن يخف الزحام. وابتل قميصه كلياً، فخلع سترته ووضعها على ذراعه. ولم يكن يحب التخلي عن سترته، فهو يتخيل نفسه بلا سترة كصبي أخرق، ولكن الحر لم يعد يطاق. ولا شك أن ثمة خطأ واضحاً في طراز ملابس الرجال. فلِمَ لا يرتدون المازر كما يفعل الهنود مثلاً؟

وما أن لاح "الباص" الخامس حتى خرج حمدي من تحت المظلة واستعد للهجوم عليه. واستطاع أن يحصل موضعاً لقدميه داخل "الباص"

بعد معركة شاقة. وفي داخل "الباص" كان الجو خانقاً لا يطاق. وكان العرق يسحّ من وجوه الركاب جميعاً. واختلطت المساحيق في وجوه النسوة بقطرات العرق. وكانت أيدي الركاب في حركة دائبة، تحاول اجتذاب الهواء بالمناديل أو الجرائد أو الحقائب. وكان ثمة طفل يوشك أن يختنق وامرأة عجوز يكاد يغمى عليها. وتشاجر "الجابي" وأحد الركاب، وتبادلا الشتائم. واشترك السائق في الشجار، ثم أوقف "الباص" وأبى أن يتحرك ما لم ينزل الراكب. وانحبس الهواء عن "الباص" وصار كفرن ملتهب.

عندما بلغ حمدي الدار كانت خيوط العرق تجري تحت بدلته من قمة رأسه حتى قدميه. وكان رأسه يكاد ينفجر وأعصابه توشك أن تلتهب. وخلع بدلته وانطرح على الحصيرة بملابسه الداخلية. وفتح المروحة فحملت إليه هواء حاراً لاهباً. وتذكر غرفة المدير العام فاجتاحه اشتياق طاغ إلى مكان بارد مريح. أين يجد مثل ذلك المكان؟ أفي هذه الغرفة التي تتلظّى أم في غرفته في "الدائرة" حيث تقذف عليه مروحة سقفية هواء حاراً كاللهب؟! وإن رأسه ليوشك أن ينفجر وهو ينكب على أوراقه في حرّ تلك الغرفة. ومع ذلك فحضرة المدير العام غير راض عنه لأنه يرفض تمشية أمور غير قانونية لإرضاء جناب الوزير.

أقبلت الزوجة تحمل صينية الطعام ووضعتها أمامه بصمت، فدارت عيناه فيها واستقرتا على طبق الباذنجان. كم يكره الباذنجان! لقد سئم منظر الطعام الذي لا يكاد يختلف لونه من يوم لآخر، وودّ لو يلقي

بالصينية بعيداً. قال في امتعاض: أفي كل يوم نتغدّى باذنجاناً؟ أما كان بوسعك شراء شيء آخر؟ أنت تعلمين أنني أكره الباذنجان.

قالت الزوجة: هذا ما قدرت عليه.

وكان العرق يسحّ من وجهها، وكان شعرها منكوشاً، وكان ثمة بقعة سخام على طرف أنفها. وومضت في ذهن حمدي صورة المرأة الأوربية فأحسّ أنه يكره زوجته، يكره هذا الطعام، يكره عمله، يكره كل شيء. قال مغضباً: أنت تلقين اللوم دائماً على السوق، لكنك تتكاسلين في حقيقتك عن الطبخ.

قالت الزوجة في استياء: وما ذنبي؟ الباميا غالية، واللوبيا رديئة، ولا يكفي المصروف اليومي لأكثر من هذا.

وكان يخيّل إليه وهو يتطلّع إليها أن ثمة ناراً تتأجج في قلبه، وأن كلماتها تلقي الوقود على هذه النار. وتذكر أن نهدي المرأة الأوربية كانا شامخين بالرغم من أنها أكبر من زوجته سناً. وربما ولدت عدداً من الأطفال أكثر من زوجته. ومع ذلك فقد تهدّل نهدا زوجته منذ وقت بعيد وبسرعة لم يتوقعها. صاح مغضباً: الا تجدين غير هذا العذر الواهي ترمين به في وجههي كل يوم؟ أنا أعرف أن داءك هو الكسل.

فاحمرّ وجه الزوجة وانتفخ العرق الأزرق في جانب عنقها، واغرورقت عيناها بالدمع.قالت بصوت فيه رنّة بكاء: أتراني أجلس بلا عمل من الصباح إلى المساء كما تفعل "الخوانم"؟ أنا واقفة على قدميّ منذ الصباح الباكر حتى الآن. ولكن حظي النائم هو الذي يجعلك تتشاجر معي كل يوم.

وسالت دموعها واختلطت بمجاري العرق الذي كان يسحّ على خديها باستمرار. وبدا له أن منظر زوجته لا يطاق، وأن بقعة السخام على طرف أنفها تزيدها قبحاً. فصاح وهو يغمض عينيه: اذهبي عن وجهي لخاطر الله.

فانصرفت الزوجة وهي تدمدم باكية. وشيّعها حمدي بنظرات تفيض بالاشمئزاز. إنه لا يفهم أية رغبة سخيفة حملته على الزواج منها. أكانت نزوة خلقها في قلبه منظر نهديها الكاعبين؟ يا للسخف! صحيح أن منظر النهود الجميلة يمسّ موطن الضعف في نفسه، ولكن هل كان الأمر يستحق كل هذه المتاعب؟! لو لم يتزوج لكان من الممكن أن يصبح محامياً مشهوراً، أو أي شيء إلاّ موظفاً مهملاً في وزارة العدلية. ولو حاولت أن تخفي نهديها عن عينيه لما خطرت على باله فكرة الزواج منها. وكان كلّما مرّ على منزلها رآها في النافذة وقد توثّب نهداها في سحر لا يقاوم. وماذا كانت النتيجة؟ هذه الحياة البائسة المعذبة.

فرغ حمدي من طعامه فانطرح على الحصيرة وحاول أن يستسلم للنوم. كانت الغرفة مليئة بالذباب، وكانت دوّامات اللهب تنفث من المروحة الصغيرة باستمرار. وبدا له أن النوم حلم بعيد المنال في مثل هذه الغرفة الملتهبة رغم شعوره بإرهاق شديد. وأية غرفة في البيت تصلح للنوم؟ إنها جميعاً تواجه الشمس، وهي في مثل هذه الساعة من النهار تبدو كفرن ملتهب.

وفجأة علا صراخ محمود. تقلّب على الحصيرة وهو يحاول عبثاً تجاهل الصراخ. لا بد أن أمّه قد ولدته في يوم نحس. فلماذا يقاسي كل

هذه المضايقات؟! إن بعض الناس يمضون شهور الصيف في لبنان أو في أوربا، والبعض الآخر يسكن قصوراً مزودة بالهواء المكيّف، وعليه هو أن يقاسي الحرّ في مثل هذا البيت. وصرخ حانقاً: اسكت ملعون الوالدين.. اسكت وإلاّ كسرت رأسك.

وكانت الأم تحاول عبثاً إسكات محمود، وكان توتر أعصابه يشتد لحظة بعد أخرى. وهرع فجأة إلى "الطرار" فرأى محمود منبطحاً على الأرض. وصاح غاضباً: ماذا بك؟

قالت الأم: تعارك مع كامل.

فقال متوعداً: إذا لم تسكت أهلكتك من الضرب.

لكن محمود واصل عويله. فانقضّ عليه ورفعه عن الأرض وأجلسه وانهال عليه صفعاً. فتعالى عويله وأخذ يرفس الأرض كالمصاب بالصرع. فعاد حمدي إلى الغرفة واستلقى على الحصيرة منهوك القوى. وأغمض عينيه محاولاً الاغفاء، لكن عويل محمود كان يهبط على مسمعه كضربات مطرقة ضخمة. واشتد شعوره بالحرّ، وانتابه صداع حادّ. وجعل يضغط على جبهته وهو يهمس في حيرة: أين المفر؟ أين؟!

وكان يعلم أن محمود لن يكفّ عن البكاء إلاّ بعد ساعات طويلة. وكان الحرّ والبكاء والصداع قد جثم على صدره ككابوس مرعب. وتساءل في دهشة واستنكار كيف رضي أن يُزجّ في كل هذه المشاكل! لقد ضاعت حياته وتبدّد شبابه وأصبح مضطهداً في كل مكان.. في البيت، في الشارع، في العمل. واختلطت في مخيّلته صورة رئيسه الغاضب بصورة ناهدة المنفّرة بعويل محمود الحاد.

واستوى قاعداً وشعور باليأس يدمي قلبه. وتساءل شارداً: أين المفرّ؟ أين؟

وارتدى ملابسه عجلاً، وخرج إلى الطريق الملتهب يضرب بلا هدف. كان الطريق ناراً تتلظى، فخلع سترته ووضعها على ذراعه. وكان يجهل إلى أين يذهب. ثم خطر له أن يستقلّ "الباص" ويقصد إلى إحدى السينمات المبرّدة. أقبل "الجابي" وهو يهوّي على وجهه بمنديل والعرق يسحّ على وجهه، وناوله التذكرة ومسح وجهه بذراعه. وعجب حمدي وهو ينظر إلى الجابي كيف يطيق البقاء في هذه السيارة ثماني ساعات. ولاحظ "الجابي" نظراته العطوف فقال وهو يجلس على مقعد قبالته ويهوّي على وجهه براحة يده: اليوم الدنيا حارة جداً.

فقال حمدي: موت حرّ. كان الله في عونكم، فالباص يلتهب كالتنّور.

قال الجابي: ليت "الباص" خفيف الحمل دائماً كما هو الآن. فما عدا ساعة أو ساعتين يزدحم بشكل لا يترك لي مجالاً للتنقل.

ثم مصمص أسفاً وأضاف: مهنتنا من أصعب المهن، ولكن ما العمل؟ لا بد للإنسان أن يشتغل من أجل لقمة العيش.

فقال حمدي: كان الله في عونك.

وخفّ توتر أعصابه وشعر ببعض العزاء. إن عذابه لأخفّ من عذاب غيره. فها هو ذا إنسان أكثر عذاباً منه. وإن محمد الأسود أكثر عذاباً من كليهما. وهناك ملايين من المعذبين الذين تغصّ بهم الأرض. ولكن ما معنى هذه المتناقضات السخيفة؟! ما معنى أن يعيش البعض في

نعيم ويعيش اخرون في شقاء؟ ولماذا يعيش إنسان كمحمد الأسود بلا ذراعين ولا ساقين، ما معنى حياته؟!

ترك حمدي "الباص" عند سينما غازي، ودخل السينما دون أن يحاول معرفة "الفيلم" المعروض. وفي الداخل كان الجوّ بارداً ينعش النفس. وكانت القاعة الواسعة تبدو كالمهجورة، ولم يكن يسمع سوى قزقزة "الحبّ" المنبعث من مقاعد الدرجة الثانية. وحينما بدأ "الفيلم" خفّ ضيقه شيئاً فشيئاً حتى كاد يتلاشى، وتابع "الفيلم" بلذة واسترخاء. وعادت به الذكرى إلى أيام شبابه يوم كان قلبه يتوق إلى المرأة، ويوم كانت ناهدة تمثل بنهديها الكاعبين أجمل أحلامه. كان "الفيلم" يعرض قصة غرام بين طالب جامعي وعاملة في متجر صغير. وكان ملوناً بألوان زاهية بدت من خلالها الحياة في حلة بهية. فالسماء زرقاء صافية الزرقة. والحدائق خضراء شديدة الخضرة قد فرشت ممراتها بالرمل الأصفر. والشوارع مزينة الجوانب. وأمواج البحر تداعب الشاطىء الجميل الذي يغصّ بالأجساد الرائعة. والناس المتأنقون يتحركون في سعادة ومرح وحبور. والبطلة والبطل يتنافسان في جمالهما وحبهما وقبلهما الطويلة. وفي ختام "الفيلم" انكشفت حقيقة البطل وإذا به ابن مليونير كبير!

خرج حمدي إلى الشارع وهو ما يزال يبتسم في غبطة وارتياح. لكن موجة من الحرارة اللافحة أيقظته من أحلامه. فاختفت الشوارع المزينة والممرات المفروشة بالرمال الصفر وحلّ محلها شارع الرشيد بوضاعته وكابته. واكتسحت صدره موجة عاتية من الاشمئزاز، وتذكّر في لمحة زوجته وأطفاله. وتساءل في إعياء: أين المفرّ؟! أين؟!

وخطر له أن يبحث في بيوت "البتاوين" عن امرأة ينسى في أحضانها همومه. وتملّكه حماس متدفق، وعاودته ذكريات العزوبة، لكن اشمئزازاً حاداً طغى على نفسه، فهز رأسه في استنكار وواصل سيره نحو "الباب الشرقي". وفي طريقه مرّ على حانة فدخلها بدون تردد.

كان كل شيء في الحانة ينم عن حقارتها. فأفرشة الموائد قذرة ممزقة، والمقاعد قديمة حائلة اللون، والأرض وسخة. وكانت الأصوات تتعالى في ضجيج متنافر بين صياح وعربدة وغناء. وكانت سحب الدخان تنبعث من سجائر لا عدد لها وتنعقد في سماء الحانة فتكتم الأنفاس. وكانت المراوح السقفية تقذف الجالسين بدوامات من لهب. واختار حمدي مائدة منعزلة وجلس وحيداً. وما أن احتسى الجرعة الأولى من كأسه حتى عادت إلى ذهنه صور "الفيلم" الأمريكي. وتنازعته عواطف متناقضة.. اشتياق عميق لاحتضان بطلة الفيلم بين ذراعيه، وضيق شديد يكاد يفجّر الصدر. ثم طغت عليه مشاعر الضيق وجثمت على صدره كالكابوس. وطافت في ذهنه صور متشابكة.. زوجته بأنفها الملوث بالسخام ونهديها المتهدلين، محمود وهو يرفس على الأرض كالمصاب بالصرع، رئيسه المتجبر وهو يوسعه لوماً وتقريعاً. واقتنع بشكل نهائي أن الحياة لم تعد تطاق. وفزّ من أفكاره على صوت متهدّج ينادي: إخواني. هل تسمحون لي بدقيقة من وقتكم؟

رفع أنظاره إلى صاحب الصوت، فإذا بكهل رزيّ الهيئة يقف مستنداً بيديه المرتعشتين إلى مائدة في الزاوية المقابلة. وخف الضجيج حتى كاد يتلاشى، واتجهت أنظار الحاضرين جميعاً إلى الرجل. واصل الرجل

الكلام بصوته المتهدّج والدموع تلتمع في عينيه: ابني عبد الله يا إخواني جوهرة.. كل شبان محلة "الجعيفر" يمدحون أخلاقه. ابني عبد الله الجوهرة تحبسه الحكومة بلا ذنب لكونه أضرب عن العمل في المعمل!! قبّلت الأيدي والأرجل ليطلقوا سراحه فلم يهتم بي أحد. ماذا أعمل يا إخواني؟ ماذا أعمل؟!

وخيّم على الحانة صمت مطبق. ثم أضاف الرجل بصوت تخنقه العبرات: أترضون بهذا الظلم يا إخواني؟! أترضون؟!

فصاح أحد الحاضرين: ألعن أبوها الحكومة الظالمة. ألعن أبو من أوجدها.

وساد الحانة هرج ومرج وانهالت اللعنات على الحكومة من كل صوب. ووجد حمدي نفسه يشارك في صبّ اللعنات على الحكومة في حميّة وحماس.

حينما غادر حمدي الحانة بعد ساعات كان يحسّ بالرضا. وكانت الحرارة قد باخت والنسائم تهب عليلة عبر النهر. وسار بخطوات وانية وفي أذنيه طنين متصل. وبدت السماء صافية الزرقة والنجوم تلتمع في قبّتها كالماس. وأطلّ البدر من عليائه فغسل الأرض بنور فضيّ.

الفهرس



ولد شاكر خصباك في
مدينة الحلة (بابل) في
عام ١٩٣٠ درس
الإبتدائية والإعدادية
والثانوية في مدارسها،
ونال الشهادة الثانوية عام
١٩٤٨ . التحق بجامعة
القاهرة في سبتمبر عام
١٩٤٨ ونال شهادة الليسانس في الجغرافيا عام
١٩٥١، ثم التحق بالجامعات الإنجليزية عام ١٩٥٤
ونال درجة الدكتوراه في الجغرافية عا
في جامعات بغداد والرياض وصنع
«الأستاذية» في عام ١٩٧٤ . له سجل
تربو كتبه العلمية المؤلفة والمترج
كتاباً .

مركز عبادي للدراسا
صنعاء - الجمهورية اليم
مركز عبادي للدراسات والنشر